تفسير سورة سبأ

هى أربع وخمسون آية . وهى مكية. قال القرطبى : فى قول الجميع إلا آية واحدة اختلف فيها ، وهى قوله : ﴿ ويرى الذين أوتوا العلم ﴾ فقالت فرقة : هى مكية ، وقالت فرقة : هى مدنية ، وسيأتى الخلاف فى معنى هذه الآية إن شاء الله وفيمن نزلت . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : نزلت سورة سبأ بمكة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٣) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ (٥) وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ (٨) أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٩) ﴾ .

قوله : ﴿ الحمد لله ﴾ تعريف الحمد مع لام الاختصاص مشعران باختصاص جميع أفراد الحمد بالله سبحانه على ما تقدّم تحقيقه فى فاتحة الكتاب . والموصول فى محل جرّ على النعت ، أو البدل ، أو النصب على الاختصاص ، أو الرفع على تقدير مبتدأ . ومعنى ﴿ له ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ : أن جميع ما هو فيها فى ملكه وتحت تصرفه يفعل به ما شاء ويحكم فيه بما يريد ، وكل نعمة واصلة إلى العبد فهى مما خلقه له ومنّ به عليه ، فحمده على ما فى السموات والأرض هو حمد له على النعم التى أنعم بها على خلقه مما خلقه لهم . ولما بين أن الحمد الدنيوى من عباده الحامدين له مختص به بين أن الحمد الأخروى مختص به كذلك فقال: ﴿ وله الحمد فى الآخرة ﴾ وقوله : ﴿ له ﴾ متعلق بنفس الحمد ، أو بما تعلق به خبر

الحمد أعنى : فى الآخرة ، فإنه متعلق بمتعلق عام هو الاستقرار أو نحوه ، والمعنى: أن له سبحانه على الاختصاص حمد عباده الذين يحمدونه فى الدار الآخرة إذا دخلوا الجنة، كما فى قوله : ﴿ وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده ﴾ [الزمر : ٧٤] ، وقوله : ﴿ الحمد للّه الذى هدانا لهذا ﴾ [الأعراف : ٤٣] ، وقوله : ﴿ الحمد للّه الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور (١) .الذى أحلنا دار المقامة من فضله ﴾ [فاطر : ٣٤ ، ٣٥]، وقوله : ﴿ وآخر دعواهم أن الحمد للّه ربّ العالمين ﴾ [يونس : ١٠] فهو سبحانه المحمود فى الآخرة كما أنه المحمود فى الدنيا وهو المالك للآخرة كما أنه المالك للدنيا ﴿ **وهو الحكيم** ﴾ الذى أحكم أمر الدارين ﴿ **الخبير** ﴾ بأمر خلقه فيهما . قيل : والفرق بين الحمدين : أن الحمد فى الدنيا عبادة ، وفى الآخرة تلذذ وابتهاج ؛ لأنه قد انقطع التكليف فيها .

ثم ذكر سبحانه بعض ما يحيط به علمه من أمور السموات والأرض فقال : ﴿ **يعلم ما يلج فى الأرض** ﴾ أى ما يدخل فيها من مطر أو كنز أو دفين ﴿ **وما يخرج منها** ﴾ من زرع ونبات وحيوان ﴿ **وما ينزل من السماء** ﴾ من الأمطار والثلوج والبرد والصواعق والبركات ، ومن ذلك ما ينزل منها من ملائكته وكتبه إلى أنبيائه ﴿ **وما يعرج فيها** ﴾ من الملائكة وأعمال العباد . قرأ الجمهور : ﴿ **ينزل** ﴾ بفتح الياء وتخفيف الزاى مسندا إلى ﴿ **ما** ﴾ وقرأ علىّ بن أبى طالب والسلمى بضم الياء وتشديد الزاى مسندا إلى اللّه سبحانه ﴿ **وهو الرحيم** ﴾ بعباده ﴿ **الغفور** ﴾ لذنوبهم .

﴿ **وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة** ﴾ المراد بهؤلاء القائلين: جنس الكفرة على الإطلاق ، أو كفار مكة على الخصوص . ومعنى ﴿ **لا تأتينا الساعة** ﴾ : أنها لا تأتى بحال من الأحوال ، إنكارا منهم لوجودها لا لمجرد إتيانها فى حال تكلمهم أو فى حال حياتهم مع تحقق وجودها فيما بعد ، فردّ اللّه عليهم وأمر رسوله أن يقول لهم : ﴿ **قل بلى وربى لتأتينكم** ﴾ وهذا القسم لتأكيد الإتيان ، قرأ الجمهور : ﴿ **لتأتينكم** ﴾ بالفوقية ، أى الساعة ، وقرأ طلق المعلم بالتحتية على تأويل الساعة باليوم أو الوقت . قال طلق : سمعت أشياخنا يقرؤون بالياء : يعنى التحتية على المعنى ، كأنه قال : ليأتينكم البعث أو أمره، كما قال : ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى أمر ربك ﴾ [النحل : ٣٣] . قرأ نافع وابن عامر : « عالم الغيب » بالرفع على أنه مبتدأ ، وخبره : ﴿ **لا يعزب** ﴾ أو على تقدير مبتدأ ، وقرأ عاصم وابن كثير وأبو عمرو بالجرّ على أنه نعت : لـ ﴿ **ربى** ﴾ وقرأ حمزة والكسائى : «علام» بالجرّ مع صيغة المبالغة ، ومعنى ﴿ **لا يعزب** ﴾ : لا يغيب عنه ولا يستتر عليه ولا يبعد ﴿ **عنه مثقال ذرة فى السموات**

---

(١) سقط من المطبوعة : ﴿ **إن ربنا لغفور شكور** ﴾ وهو خطأ ؛ لأن ﴿ **الذى أحلنا** ﴾ وحدها ليست موضع الاستشهاد فى الحمد .

ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ﴾ المثقال ﴿ **ولا أكبر** ﴾ منه ﴿ **إلا فى كتاب مبين** ﴾ وهو اللوح المحفوظ . والمعنى : إلا وهو مثبت فى اللوح المحفوظ الذى اشتمل على معلومات اللّه سبحانه فهو مؤكد لنفى العزوب . قرأ الجمهور : ﴿ **يعزب** ﴾ بضم الزاى ، وقرأ يحيى بن وثاب بكسرها . قال الفراء : والكسر أحبّ إلىّ ، وهما لغتان ، يقال ، عزُب يعزب بالضم ، ويعزب بالكسر : إذا بعد وغاب. وقرأ الجمهور : ﴿ **ولا أصغر** ﴾، ﴿ **ولا أكبر** ﴾ بالرفع على الابتداء ، والخبر : ﴿ **إلا فى كتاب** ﴾ أو على العطف على ﴿ **مثقال** ﴾، وقرأ قتادة والأعمش بنصبهما عطفا على ﴿ **ذرة** ﴾ أو على أن لا هى لا التبرئة التى يبنى اسمها على الفتح .

واللام فى : ﴿ **ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ للتعليل لقوله : ﴿ **لتأتينكم** ﴾ أى إتيان الساعة فائدته جزاء المؤمنين بالثواب والكافرين بالعقاب ، والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى الموصول ، أى أولئك الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ **لهم مغفرة** ﴾ لذنوبهم ﴿ **ورزق كريم** ﴾ وهو الجنة بسبب إيمانهم وعملهم الصالح مع التفضل عليهم من اللّه سبحانه . ثم ذكر فريق الكافرين الذين يعاقبون عند إتيان الساعة فقال : ﴿ **والذين سعوا فى آياتنا معاجزين** ﴾ أى سعوا فى إبطال آياتنا المنزلة على الرسل ، وقدحوا فيها وصدّوا الناس عنها ، ومعنى ﴿ **معاجزين** ﴾: مسابقين يحسبون أنهم يفوتوننا ولا يدركون ؛ وذلك باعتقادهم أنهم لا يبعثون، يقال : عاجزه وأعجزه : إذا غالبه وسبقه . قرأ الجمهور : ﴿ **معاجزين** ﴾ وقرأ ابن كثير وابن محيصن وحميد ومجاهد وأبو عمرو : « معجزين » أى مثبطين للناس عن الإيمان بالآيات ﴿ **أولئك** ﴾ أى الذين سعوا ﴿ لهم عذاب من رجز ﴾ الرجز هو : العذاب ، فمن للبيان ، وقيل: الرجز هو : أسوأ العذاب وأشدّه ، والأوّل أولى ، ومن ذلك قوله : ﴿ فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء ﴾ [البقرة : ٥٩] .قرأ الجمهور : « أليم » بالجرّ صفة لرجز ، وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم بالرفع صفة لعذاب ، والأليم: الشديد الألم .

﴿ **ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحقّ** ﴾ لما ذكر الذين سعوا فى إبطال آيات اللّه ذكر الذين يؤمنون بها ، ومعنى ﴿ **ويرى الذين أتوا العلم** ﴾:أى يعلمون وهم الصحابة. وقال مقاتل : هم مؤمنو أهل الكتاب. وقيل : جميع المسلمين ، والموصول هو المفعول الأوّل ليرى ، والمفعول الثانى الحقّ ، والضمير هو ضمير الفصل . وبالنصب قرأ الجمهور ، وقرأ ابن أبى عبلة بالرفع على أنه خبر الضمير ، والجملة فى محل نصب على أنها المفعول الثانى ، وهى لغة تميم ، فإنهم يرفعون ما بعد ضمير الفصل ، وزعم الفرّاء أن الاختيار الرفع ، وخالفه غيره. وقالوا: النصب أكثر. قيل: وقوله: ﴿**يرى**﴾ معطوف على: ﴿ **ليجزى** ﴾ وبه قال الزجاج والفراء ، واعترض عليهما بأن قوله : ﴿ **ليجزى** ﴾ متعلق بقوله : ﴿ **لتأتينكم** ﴾ ولا يقال : **لتأتينكم** الساعة ليرى الذين أوتوا العلم أن القرآن حق ، والأولى أنه كلام مستأنف لدفع ما يقوله الذين سعوا فى الآيات، أى إن ذلك السعى منهم يدلّ على جهلهم لأنهم مخالفون لما يعلمه أهل

العلم في شأن القرآن ﴿ **ويهدى إلى صراط العزيز الحميد** ﴾ [١] معطوف على : ﴿**الحق** ﴾ عطف فعل على اسم ؛ لأنه في تأويله كما في قوله : ﴿صافات ويقبضن ﴾ [الملك : ١٩] أي وقابضات ، كأنه قيل : وهاديا . وقيل : إنه مستأنف وفاعله ضمير يرجع إلى فاعل أنزل ، وهو القرآن . والصراط : الطريق، أي ويهدى إلى طريق ﴿ **العزيز** ﴾ في ملكه ﴿ **الحميد** ﴾ عند خلقه، والمراد : أنه يهدى إلى دين الله وهو التوحيد .

ثم ذكر سبحانه نوعا آخر من كلام منكرى البعث فقال : ﴿ **وقال الذين كفروا** ﴾ أى قال بعض لبعض : ﴿ **هل ندلكم على رجل** ﴾ يعنون : محمدا ﷺ ، أى هل نرشدكم إلى رجل ﴿ **ينبئكم** ﴾ أي يخبركم بأمر عجيب ونبأ غريب هو أنكم ﴿ **إذا مزقتم كل ممزق** ﴾ أى فرقتم كل تفريق وقطعتم كل تقطيع وصرتم بعد موتكم رفاتا وترابا ﴿ **إنكم لفى خلق جديد** ﴾ أى تخلقون خلقا جديدا وتبعثون من قبوركم أحياء وتعودون إلى الصور التى كنتم عليها . قال هذا القول بعضهم لبعض استهزاء بما وعدهم الله على لسان رسوله من البعث . وأخرجوا الكلام مخرج التلهى به والتضاحك مما يقوله من ذلك ، وإذا فى موضع نصب بقوله : ﴿ **مزقتم** ﴾ . قال النحاس : ولا يجوز أن يكون العامل فيها ينبئكم؛ لأنه ليس يخبرهم ذلك الوقت ، ولا يجوز أن يكون العامل فيها ما بعد إنّ ؛ لأنه لا يعمل فيما قبلها . وأجاز الزجاج أن يكون العامل فيها محذوفا ، والتقدير : إذا مزّقتم كل ممزّق بعثتم أو نبئتم بأنكم تبعثون إذا مزقتم ، وقال المهدوى : لا يجوز أن يعمل فيه مزقتم؛ لأنه مضاف إليه والمضاف إليه لا يعمل فى المضاف . وأصل المزق: خرق الأشياء ، يقال : ثوب مزيق وممزق ومتمزق وممزوق .

ثم حكى سبحانه عن هؤلاء الكفار أنهم ردّدوا ما وعدهم به رسول الله ﷺ من البعث بين أمرين فقالوا : ﴿ **أفترى على الله كذبا أم به جنة** ﴾ أى أهو كاذب فيما قاله أم به جنون بحيث لا يعقل ما يقوله ؟ والهمزة فى:﴿**أفترى**﴾ هى همزة الاستفهام وحذفت لأجلها همزة الوصل، كما تقدّم فى قوله: ﴿ أطلع الغيب ﴾ [مريم: ٧٨] ثم ردّ عليهم سبحانه ما قالوه فى رسوله فقال: ﴿**بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد**﴾ أى ليس الأمر كما زعموا ، بل هم الذين ضلوا عن الفهم وإدراك الحقائق ، فكفروا بالآخرة ولم يؤمنوا بما جاءهم به، فصاروا بسبب ذلك فى العذاب الدائم فى الآخرة ، وهم اليوم فى الضلال البعيد عن الحق غاية البعد .

ثم وبخهم سبحانه بما اجترؤوا [٢] عليه من التكذيب مبينا لهم أن ذلك لم يصدر منهم إلا لعدم التفكر والتدبر فى خلق السماء والأرض ، وأن من قدر على هذا الخلق العظيم لا يعجزه أن يبعث من مخلوقاته ما هو دون ذلك ، ويعيده إلى ما كان عليه من الذات والصفات ، ومعنى

---

(١) فى المطبوعة : « صراط مستقيم » والصحيح ما أثبتناه .

(٢) فى المطبوعة : « اجترا » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

﴿**إلى ما بين أيديهم وما خلفهم** ﴾ : أنهم إذا نظروا رأوا السماء خلفهم وقدّامهم ، وكذلك إذا نظروا فى الأرض رأوها خلفهم وقدّامهم ، فالسماء والأرض محيطتان بهم، فهو القادر على أن ينزل بهم ما شاء من العذاب بسبب كفرهم وتكذيبهم لرسوله وإنكارهم للبعث ، فهذه الآية اشتملت على أمرين : أحدهما : أن هذا الخلق الذى خلقه اللّه من السماء والأرض يدلّ على كمال القدرة على ما هو دونه من البعث، كما فى قوله: ﴿ أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ﴾ [يس : ٨١]. والأمر الآخر : التهديد لهم بأن من خلق السماء والأرض على هذه الهيئة التى قد أحاطت بجميع المخلوقات فيهما قادر على تعجيل العذاب لهم. ﴿ **إن نشأ نخسف بهم الأرض** ﴾ كما خسف بقارون ﴿ **أو نسقط عليهم كسفا** ﴾ أى قطعا ﴿ **من السماء** ﴾ كما أسقطها على أصحاب الأيكة فكيف يأمنون ذلك ؟ قرأ الجمهور : ﴿ **إن نشأ** ﴾ بنون العظمة ، وكذا نخسف ونسقط . وقرأ حمزة والكسائى بالياء التحتية فى الأفعال الثلاثة، أى إن يشأ اللّه. وقرأ الكسائى وحده بإدغام الفاء فى الباء فى : ﴿ **نخسف بهم** ﴾ . قال أبو على الفارسى: وذلك غير جائز؛ لأن الفاء من باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا بخلاف الباء ، وقرأ الجمهور : ﴿ **كسفا** ﴾ بسكون السين. وقرأ حفص والسلمى بفتحها . ﴿ **إنّ فى ذلك** ﴾ المذكور من خلق السماء والأرض ﴿ **لآية** ﴾ واضحة ودلالة بينة ﴿ **لكل عبد منيب** ﴾ أى راجع إلى ربه بالتوبة والإخلاص وخصّ المنيب ، لأنه المنتفع بالتفكر .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **يعلم ما يلج فى الأرض** ﴾ قال : من المطر ﴿ **وما يخرج منها** ﴾ قال : من النبات ﴿ **وما ينزل من السماء** ﴾ قال : من الملائكة ﴿ **وما يعرج فيها** ﴾ قال : الملائكة ، وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **من رجز أليم** ﴾ قال : الرجز هو : العذاب الأليم الموجع ، وفى قوله : ﴿**ويرى الذين أوتوا العلم** ﴾ قال : أصحاب محمد . وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك فى الآية قال : يعنى المؤمنين من أهل الكتاب . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿**وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل** ﴾ قال : قال ذلك مشركو قريش ﴿ **إذا مزّقتم كل ممزّق** ﴾ يقول: إذا أكلتكم الأرض وصرتم رفاتا وعظاما وتقطعتكم السباع والطير ﴿ **إنكم لفى خلق جديد** ﴾ إنكم ستحيون وتبعثون ، قالوا ذلك تكذيبا به . ﴿ **أفترى على اللّه كذبا أم به جنة** ﴾ قال : قالوا : إما أن يكون يكذب على اللّه وإما أن يكون مجنونا ﴿ **أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض** ﴾ قالوا: إنك إن نظرت عن يمينك وعن شمالك ومن بين يديك ومن خلفك رأيت السماء والأرض ﴿ **إن نشأ نخسف بهم الأرض** ﴾ كما خسفنا بمن كان قبلهم ﴿**أو نسقط عليهم كسفا من السماء**﴾ أى قطع من السماء إن يشأ أن يعذب بسمائه فعل، وإن يشأ أن يعذب بأرضه فعل وكل خلقه له جند ﴿ **إن فى ذلك لآية لكل عبد منيب** ﴾ قال : تائب مقبل إلى اللّه .

﴿ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١) وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣) فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤) ﴾ .

ثم ذكر سبحانه من عباده المنيبين إليه داود وسليمان، كما قال فى داود : ﴿ فاستغفر ربه وخرّ راكعا وأناب ﴾ [ص: ٢٤]، وقال فى سليمان : ﴿ وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب ﴾ [ص : ٣٤] فقال : ﴿ **ولقد آتينا داود منا فضلا** ﴾ أى آتيناه بسبب إنابته فضلا منا على سائر الأنبياء. واختلف فى هذا الفضل على أقوال: فقيل : النبوة . وقيل : الزبور . وقيل : العلم ، وقيل : القوّة، كما فى قوله : ﴿ واذكر عبدنا داود ذا الأيد ﴾ [ص : ١٧]. وقيل : تسخير الجبال، كما فى قوله : ﴿ **يا جبال أوّبى معه** ﴾ . وقيل : التوبة . وقيل : الحكم بالعدل ،كما فى قوله : ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ﴾ [ص : ٢٦] . وقيل : هو إلانة الحديد، كما فى قوله: ﴿ **وألنا له الحديد** ﴾ وقيل : حسن الصوت ، والأولى أن يقال : إن هذا الفضل المذكور هو ما ذكره الله بعده من قوله : ﴿ **يا جبال** ﴾ إلى آخر الآية ، وجملة : ﴿ **يا جبال أوّبى معه** ﴾ مقدرّة بالقول ، أى قلنا : يا جبال . والتأويب : التسبيح، كما فى قوله : ﴿ إنا سخرنا الجبال معه يسبحن ﴾ [ص : ١٨]. قال أبو ميسرة : هو التسبيح بلسان الحبشة . وكان إذا سبح داود سبحت معه ، ومعنى تسبيح الجبال: أن الله يجعلها قادرة على ذلك ، أو يخلق فيها التسبيح معجزة لداود . وقيل : معنى ﴿ **أوّبى** ﴾ : سيرى معه ، من التأويب الذى هو سير النهار أجمع ، ومنه قول ابن مقبل :

لحقنا بحىّ أوّبوا السير بعد ما دفعنا شعاع الشمس والطرف مجنح

قرأ الجمهور : ﴿ **أوبى** ﴾ بفتح الهمزة وتشديد الواو على صيغة الأمر ، من التأويب وهو الترجيع أو التسبيح أو السير أو النوح. وقرأ ابن عباس والحسن وقتادة وابن أبى إسحاق: «أوبى » بضم الهمزة أمرا من آب يؤوب: إذا رجع ، أى ارجعى معه . قرأ الجمهور : ﴿ **والطير** ﴾ بالنصب عطفا على: ﴿ **فضلا** ﴾ على معنى : وسخرنا له الطير ؛ لأن إيتاءه إياها تسخيرها له ، أوعطفا على محل : ﴿ **يا جبال** ﴾ لأنه منصوب تقديرا ، إذ المعنى : نادينا الجبال والطير . وقال سيبويه وأبو عمرو بن العلاء : انتصابه بفعل مضمر على معنى: وسخرنا له الطير . وقال الزجاج والنحاس: يجوز أن يكون مفعولا معه كما تقول: استوى الماء والخشبة . وقال الكسائى: إنه معطوف على: ﴿ **فضلا** ﴾ لكن على تقدير مضاف محذوف ، أى آتيناه فضلا وتسبيح الطير .

وقرأ السلمى والأعرج ويعقوب وأبو نوفل وابن أبى إسحاق ونصربن عاصم وابن هرمز ومسلمة ابن عبد الملك بالرفع عطفا على لفظ الجبال ، أو على المضمر فى: ﴿ **أوّبى** ﴾ لوقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه ﴿ **وألنا له الحديد** ﴾ معطوف على: ﴿ **آتيناه** ﴾ أى جعلناه لينا ليعمل به ما شاء . قال الحسن : صار الحديد كالشمع يعمله من غير نار . وقال السدّى : كان الحديد فى يده كالطين المبلول والعجين والشمع يصرفه كيف يشاء من غير نار ولا ضرب بمطرقة ، وكذا قال مقاتل ، وكان يفرغ من عمل الدرع فى بعض يوم .

﴿ **أن اعمل سابغات** ﴾ فى « أن » هذه وجهان : أحدهما : أنها مصدرية على حذف حرف الجرّ ، أى بأن اعمل ، والثانى : أنها المفسرة لقوله : ﴿ **وألنا** ﴾ وفيه نظر؛ لأنها لا تكون إلا بعد القول أو ما هو فى معناه . وقدّر بعضهم فعلا فيه معنى القول ، فقال : التقدير : وأمرناه أن اعمل . وقوله : ﴿ **سابغات** ﴾ صفة لموصوف محذوف ، أى دروعا سابغات ، والسابغات : الكوامل الواسعات ، يقال : سبغ الدرع والثوب وغيرهما : إذا غطى كل ماهو عليه وفضل منه فضله. ﴿ **وقدّر فى السرد** ﴾ السرد : نسج الدروع ، ويقال : السرد والزرد، كما يقال السراد والزراد: لصانع الدروع ، والسرد أيضا الخرز. يقال : سرد يسرد : إذا خرز ، ومنه سرد الكلام: إذا جاء به متواليا ، ومنه حديث عائشة: لم يكن النبىّ ﷺ يسرد الحديث كسردكم [1] . قال سيبويه : ومنه سريد ، أى جرى ، **ومعنى** سرد الدروع : إحكامها. وأن يكون نظام حلقها ولاء غير مختلف ، ومنه قول لبيد :

سرد الدروع مضاعفا أسراده ... لينال طول العيش غير مروم

وقول أبى ذؤيب الهذلى :

وعليهما مسرودتان قضاهما ... داود إذ صنع السوابغ تبع

قال قتادة : كانت الدروع قبل داود ثقالا ، فلذلك أمر هو بالتقدير فيما يجمع الخفة والحصانة ، أى قدر ما تأخذ من هذين المعنيين بقسطه فلا تقصد الحصانة فيثقل ولا الخفة فيزيل المنعة ، وقال ابن زيد : التقدير الذى أمر به هو فى قدر الحلقة أى لا تعملها صغيرة فتضعف ولا يقوى الدرع على الدفاع ، ولا تعملها كبيرة فتثقل على لابسها . وقيل : إن التقدير هو فى المسمار ، أى لا تجعل مسمار الدرع دقيقا فيقلق ولا غليظا فيفصم الحلق. ثم خاطب داود وأهله فقال : ﴿**واعملوا صالحا**﴾ أى عملا صالحا ،كما فى قوله : ﴿ **اعملوا آل داود شكرا** ﴾ ثم علل الأمر بالعمل الصالح بقوله : ﴿ **إنى بما تعملون بصير** ﴾ أى لا يخفى علىّ شىء من ذلك .

﴿ **ولسليمان الريح** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **الريح** ﴾ بالنصب على تقدير : وسخرنا لسليمان الريح كما قال الزجاج ، وقرأ عاصم فى رواية أبى بكر عنه بالرفع على الابتداء والخبر ، أى

(١) أحمد ٦ / ١١٨ والبخارى فى المناقب (٣٥٦٨) ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٤٩٣ / ١٦٠) والترمذى فى المناقب (٣٦٣٩) وقال : «هذا حديث حسن » .

ولسليمان الريح ثابتة أو مسخرة ، وقرأ الجمهور : ﴿ **الريح** ﴾ وقرأ الحسن وأبو حيوة وخالد بن إلياس : « الرياح » بالجمع . ﴿ **غدوّها شهر ورواحها شهر** ﴾ أى تسير بالغداة مسيرة شهر وتسير بالعشى كذلك ، والجملة إما مستأنفة لبيان تسخير الريح ، أو فى محل نصب على الحال ، والمعنى : أنها كانت تسير فى اليوم الواحد مسيرة شهرين . قال الحسن : كان يغدو من دمشق بقيل بإصطخر ، وبينهما مسيرة شهر للمسرع ، ثم يروح من إصطخر فيبيت بكابل ، وبينهما مسيرة شهر ﴿ **وأسلنا له عين القطر** ﴾ القطر : النحاس الذائب . قال الواحدى : قال المفسرون: أجريت له عين الصفر ثلاثة أيام بلياليهن كجرى الماء ، وإنما يعمل الناس اليوم بما أعطى سليمان، والمعنى : أسلنا له عين النحاس كما ألنا الحديد لداود . وقال قتادة : أسال الله له عينا يستعملها بما يريد ﴿ **ومن الجنّ من يعمل بين يديه بإذن ربه** ﴾ من مبتدأ ويعمل خبره ومن الجنّ متعلق به أو بمحذوف على أنه حال، أو من يعمل معطوف على الريح ومن الجنّ حال ، والمعنى : وسخرنا له من يعمل بين يديه حال كونه من الجنّ بإذن ربه ، أى بأمره . والإذن مصدر مضاف إلى فاعله ، والجار والمجرور فى محل نصب على الحال ، أى مسخرا أو ميسرًا بأمر ربه ﴿ **ومن يزغ منهم عن أمرنا** ﴾ أى ومن يعدل من الجنّ عن أمرنا الذى أمرناه به وهو طاعة سليمان ﴿**نذقه من عذاب السعير**﴾ قال أكثر المفسرين : وذلك فى الآخرة . وقيل : فى الدنيا . قال السدّى : وكل الله بالجنّ ملكا بيده سوط من نار، فمن زاغ عن أمر سليمان ضربه بذلك السوط ضربة فتحرقه .

ثم ذكر سبحانه ما يعمله الجنّ لسليمان فقال: ﴿ **يعملون له ما شاء** ﴾ و« من » فى قوله : ﴿ **من محاريب** ﴾ للبيان ، والمحاريب فى اللغة: كل موضع مرتفع وهى الأبنية الرفيعة والقصور العالية . قال المبرد : لا يكون المحراب إلا أن يرتقى إليه بدرج ، ومنه قيل للذى يصلى فيه: محراب؛ لأنه يرفع ويعظم . وقال مجاهد : المحاريب دون القصور . وقال أبو عبيدة : المحراب: أشرف بيوت الدار ، ومنه قول الشاعر :

وماذا عليه إن ذكرت أوانسا كغزلان رمل فى محاريب أقيال

وقال الضحاك : المراد بالمحاريب هنا : المساجد ، والتماثيل جمع تمثال وهو: كل شىء مثلته بشىء ، أى صورته بصورته من نحاس أو زجاج أو رخام أو غير ذلك . قيل : كانت هذه التماثيل صور الأنبياء والملائكة والعلماء والصلحاء، وكانوا يصوّرونها فى المساجد ليراها الناس فيزدادوا عبادة واجتهادا . وقيل : هى تماثيل أشياء ليست من الحيوان . وقد استدل بهذا على أن التصوير كان مباحا فى شرع سليمان ، ونسخ ذلك بشرع نبينا محمد ﷺ . والجفان جمع جفنة وهى: القصعة الكبيرة . ﴿ **الجواب** ﴾ جمع جابية وهى :حفيرة كالحوض . وقيل : هى الحوض الكبير يجبى الماء ، أى يجمعه . قال الواحدى : قال المفسرون : يعنى قصاعا فى العظم كحياض الإبل يجتمع على القصعة الواحدة ألف رجل يأكلون منها . قال النحاس : الأولى إثبات الياء

فى الجوابى ، ومن حذف الياء قال : سبيل الألف واللام أن تدخل على النكرة فلا تغيرها على حالها، فلما كان يقال: جواب ودخلت الألف واللام أقرّ على حاله فحذف الياء. قال الكسائى : يقال : جبوت الماء وجبيته فى الحوض ، أى جمعته . والجابية : الحوض الذى يجبى فيه الماء للإبل. وقال النحاس : والجابية : القدر العظيمة والحوض العظيم الكبير الذى يجبى فيه الشىء ، أى يجمع ، ومنه جبيت الخراج وجبيت الجراد : جمعته فى الكساء ﴿ **وقدور راسيات** ﴾ قال قتادة : هى قدور النحاس تكون بفارس . وقال الضحاك : هى قدور تنحت من الجبال الصم عملتها له الشياطين ، ومعنى ﴿ **راسيات** ﴾ . ثابتات لا تحمل ولا تحرّك لعظمها . ثم أمرهم سبحانه بالعمل الصالح على العموم ، أى سليمان ، وأهله ، فقال : ﴿ **اعملوا آل داود شكرا** ﴾ أى وقلنا لهم اعملوا بطاعة اللّه يا آل داود شكرا له على ما آتاكم أو اعملوا عملا شكرا على أنه صفة مصدر محذوف ، أو اعملوا للشكر على أنه مفعول له أو حال، أى شاكرين أو مفعول به ، وسميت الطاعة شكرا؛ لأنها من جملة أنواعه، أو منصوب على المصدرية بفعل مقدّر من جنسه، أى اشكروا شكرا . ثم بين بعد أمرهم بالشكر أن الشاكرين له من عباده ليسوا بالكثير فقال : ﴿**وقليل من عبادى الشكور** ﴾ أى العامل بطاعتى الشاكر لنعمتى قليل . وارتفاع ﴿ **قليل** ﴾ على أنه خبر مقدّم . و﴿ من **عبادى** ﴾ صفة له . والشكور مبتدأ .

﴿ **فلما قضينا عليه الموت** ﴾ أى حكمنا عليه به وألزمناه إياه ﴿ **ما دلهم على موته إلا دابة الأرض** ﴾ يعنى الأرضة. وقرئ : « الأرض » بفتح الراء ، أى الأكل ، يقال : أرضت الخشبة أرضا : إذا أكلتها الأرضة . ومعنى ﴿ **تأكل منسأته** ﴾ : تأكل عصاه التى كان متكئا عليها ، والمنسأة : العصا بلغة الحبشة ، أو هى مأخوذة من نسأت الغنم ، أى زجرتها . قال الزجاج : المنسأة التى ينسأ بها ، أى يطرد . قرأ الجمهور : ﴿ **منسأته** ﴾ بهمزة مفتوحة . وقرأ ابن ذكوان بهمزة ساكنة . وقرأ نافع وأبو عمرو بألف محضة . قال المبرد : بعض العرب يبدل من همزتها ألفا ، وأنشد :

إذا دببت على المنساة من كبر ... فقد تباعد عنك اللهو والغزل

ومثل قراءة الجمهور قول الشاعر :

ضربنا بمنسأة وجهه ... فصار بذاك مهينا ذليلا

ومثله :

أمن أجل حبل لا أباك ضربته ... بمنسأة قد جرّ حبلك أحبلا

ومما يدلّ على قراءة ابن ذكوان قول طرفة :

أمون كألواح الأران نسأتها ... على لاحب كأنه ظهر برجد

﴿ فلما خرّ ﴾ أى سقط ﴿ تبينت الجنّ ﴾ أى ظهر لهم ، من تبينت الشيء : إذا علمته ، أى علمت الجنّ ﴿أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين﴾ أى لو صح ما يزعمونه من أنهم يعلمون الغيب لعلموا بموته، ولم يلبثوا بعد موته مدة طويلة فى العذاب المهين فى العمل الذى أمرهم به، والطاعة له وهو إذ ذاك ميت . قال مقاتل : العذاب المهين : الشقاء والنصب فى العمل. قال الواحدى: قال المفسرون: كانت الناس فى زمان سليمان يقولون: إن الجنّ تعلم الغيب، فلما مكث سليمان قائما على عصاه حولا ميتا ، والجنّ تعمل تلك الأعمال الشاقة التى كانت تعمل فى حياة سليمان لا يشعرون بموته حتى أكلت الأرضة عصاه فخرّ ميتا فعلموا بموته ، وعلم الناس أن الجنّ لا تعلم الغيب ، ويجوز أن يكون تبينت الجنة من تبين الشيءُ ، لا من تبينت الشيء ، أى ظهر وتجلى ، وأن وما فى حيزها بدل اشتمال من الجنّ مع تقدير محذوف ، أى ظهر أمر الجن للناس أنهم لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين ، أو ظهر أن الجنّ لو كانوا يعلمون الغيب إلخ. قرأ الجمهور : ﴿ تبينت ﴾ على البناء للفاعل مسندا إلى الجنّ. وقرأ ابن عباس ويعقوب: ﴿ تبينت ﴾ على البناء للمفعول، ومعنى للقراءتين. يعرف مما قدّمنا .

وقد أخرج ابن أبى شيبة فى المصنف وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ أوّبى معه ﴾ قال: سبحى معه ، وروى مثله عن أبى ميسرة ومجاهد وعكرمة وقتادة وابن زيد. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: ﴿وألنا له الحديد﴾ قال: كالعجين. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عنه أيضا فى قوله: ﴿وقدّر فى السرد﴾ قال: حلق الحديد. وأخرج عبد الرزاق والحاكم عنه أيضًا: ﴿وقدّر فى السرد﴾ قال : لا تدقّ المسامير وتوسع الحلق فتسلس ، ولا تغلظ المسامير وتضيق الحلق فتقصم ، واجعله قدرا . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عنه أيضًا فى قوله : ﴿ وأسلنا له عين القطر ﴾ قال : النحاس . وأخرج ابن المنذر عنه أيضا قال : القطر : النحاس لم يقدر عليها أحد بعد سليمان ، وإنما يعمل الناس بعده فيما كان أعطى سليمان . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال: القطر: الصفر. وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن ابن عباس فى قوله: ﴿ وتماثيل ﴾ قال: اتخذ سليمان تماثيل من نحاس فقال: يا رب ، انفخ فيها الروح فإنها أقوى على الخدمة ، فنفخ الله فيها الروح فكانت تخدمه ، وكان إسفنديار من بقاياهم، فقيل لداود سليمان : ﴿اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور﴾. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ كالجواب ﴾ قال : كالجوبة من الأرض ﴿ وقدور راسيات ﴾ قال : أثافيها منها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ وقليل من عبادى الشكور ﴾ يقول : قليل من عبادى الموحدين توحيدهم . وأخرج هؤلاء عنه أيضا قال : لبث سليمان على عصاه حولا بعد ما مات ، ثم خرّ على رأس الحول ، فأخذت الجنّ عصى مثل عصاه ودابة مثل دابته فأرسلوها عليها فأكلتها فى سنة ، وكان ابن عباس يقرأ : ﴿فلما خرّ تبينت الجن ﴾ الآية ، قال سفيان : وفى قراءة ابن مسعود: «وهم يدأبون له حولا » .

وأخرج البزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن السنى وابن مردويه عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « كان سليمان إذا صلى رأى شجرة نابتة بين يديه ، فيقول لها : ما اسمك ؟ فتقول كذا وكذا، فيقول: لما أنت ؟ فتقول : لكذا وكذا ، فإن كانت لغرس غرست، وإن كانت لدواء كتبت ، وصلى ذات يوم فإذا شجرة نابتة بين يديه فقال لها : ما اسمك ؟ قالت الخروب ؟ قال : لأى شىء أنت ؟ قالت : لخراب هذا البيت ، فقال سليمان : اللهم عمّ عن الجنّ موتى حتى يعلم الإنس أن الجنّ لا يعلمون الغيب ، فهيأ عصا فتوكأ عليها ، وقبضه اللّه وهو متكئ عليها ، فمكث حولا ميتا والجنّ تعمل ، فأكلتها الأرضة فسقطت ، فعلموا عند ذلك بموته ، فتبينت الإنس ﴿ أن ﴾ الجنّ ﴿ **لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين** ﴾ » وكان ابن عباس يقرؤها كذلك ، فشكرت الجنّ للأرضة، فأينما كانت يأتونها بالماء (١) . وأخرجه الحاكم وصححه عن ابن عباس موقوفا (٢) . وأخرج الديلمى عن زيد بن أرقم مرفوعا يقول اللّه عز وجلّ : « إنى تفضلت على عبادى بثلاث : ألقيت الدابة على الحبة ولولا ذلك لكنزها الملوك كما يكنزون الذهب والفضة ، وألقيت النتن على الجسد ولولا ذلك لم يدفن حبيب حبيبه ، واستلبت الحزن ولولا ذلك لذهب النسل » (٣) .

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ (١٧) وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩) وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١) ﴾ .

لما ذكر سبحانه حال بعض الشاكرين لنعمه عقبه بحال بعض الجاحدين لها ، فقال : ﴿ **لقد كان لسبأ** ﴾ المراد بسبأ : القبيلة التى هى من أولاد سبأ ، وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود . قرأ الجمهور: ﴿ **لسبأ** ﴾ بالجرّ والتنوين على أنه اسم حىّ ، أى الحىّ الذين هم

(١) ابن جرير ٢٢ / ٥١ والطبرانى (١٢٢٨١) وقال الهيثمى فى المجمع ٨ / ٢١١ : « ورواه البزار بنحوه موقوفًا ،ومرفوعًا ، وفيه عطاء وقد اختلط، وبقية رجالهما رجال الصحيح » .

(٢) صححه الحاكم ٢ / ٤٢٣ ووافقه الذهبى .

(٣) الديلمى (٨٠٣٦) .

أولاد سبأ ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : « لسبأ » ممنوع من الصرف بتأويل القبيلة ، واختار هذه القراءة أبو عبيد ، ويقوّى القراءة الأولى قوله : ﴿ فى مساكنهم ﴾ ولو كان على تأويل القبيلة لقال : فى مساكنها ، فمما ورد على القراءة الأولى قول الشاعر :

الواردون وتيم فى ذرى سبأ قد عضّ أعناقها جلد الجواميس

ومما ورد على القراءة الثانية قول الشاعر :

من سبأ الحاضرين مأرب إذ يبنون من دون مسيله العرما

وقرأ قنبل وأبو حيوة والجحدرى: « لسبأ » بإسكان الهمزة ، وقرئ بقلبها ألفا . وقرأ الجمهور : ﴿ فى مساكنهم ﴾ على الجمع ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم . ووجه الاختيار: أنها كانت لهم منازل كثيرة ، ومساكن متعدّدة . وقرأ حمزة وحفص بالإفراد مع فتح الكاف . وقرأ الكسائى بالإفراد مع كسرها ، وبهذه القراءة قرأ يحيى بن وثاب والأعمش ، ووجه الإفراد أنه مصدر يشمل القليل والكثير ، أو اسم مكان وأريد به معنى الجمع ، وهذه المساكن التى كانت لهم هى التى يقال لها الآن : مأرب ، وبينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليال ، ومعنى قوله : ﴿ آية ﴾ أى علامة دالة على كمال قدرة الله وبديع صنعه ، ثم بين هذه الآية فقال : ﴿جنتان ﴾ وارتفاعهما على البدل من آية، قاله الفراء ، أو على أنهما خبر مبتدأ محذوف قاله الزجاج ، أو على أنهما مبتدأ وخبره : ﴿ عن يمين وشمال ﴾ واختار هذا الوجه ابن عطية ، وفيه أنه لا يجوز الابتداء بالنكرة من غير مسوّغ . وقرأ ابن أبى عبلة : « جنتين » بالنصب على أنهما خبر ثان واسمها آية، وهاتان الجنتان كانتا عن يمين واديهم وشماله قد أحاطتا به من جهتيه ، وكانت مساكنهم فى الوادى ، والآية هى الجنتان ، كانت المرأة تمشى فيهما وعلى رأسها المكتل ، فيمتلئ من أنواع الفواكه التى تتساقط من غير أن تمسها بيدها . وقال عبد الرحمن بن زيد : إن الآية التى كانت لأهل سبأ فى مساكنهم أنهم لم يروا فيها بعوضة ولا ذبابا ولا بغوثا ولا قملة ولا عقربا ولا حية ولا غير ذلك من الهوام ، وإذا جاءهم الركب فى ثيابهم القمل ماتت عند رؤيتهم لبيوتهم . قال القشيرى : ولم يرد جنتين اثنتين ، بل أراد من الجهتين :يمنة ويسرة فى كل جهة بساتين كثيرة ﴿ كلوا من رزق ربكم ﴾ أى قيل لهم ذلك ولم يكن ثم أمر ، ولكن المراد: تمكينهم من تلك النعم . وقيل : إنها قالت لهم الملائكة ، والمراد بالرزق : هو ثمار الجنتين . وقيل : إنهم خوطبوا بذلك على لسان نبيهم ﴿ واشكروا له ﴾ على ما رزقكم من هذه النعم واعملوا بطاعته واجتنبوا معاصيه ، وجملة : ﴿ بلدة طيبة وربّ غفور ﴾ مستأنفة لبيان موجب الشكر . والمعنى: هذه بلدة طيبة لكثرة أشجارها وطيب ثمارها . وقيل : معنى كونها طيبة: أنها غير سبخة . وقيل : ليس فيها هوامّ . وقال مجاهد : هى صنعاء. ومعنى ﴿ وربّ غفور ﴾ : أن المنعم عليهم ربّ غفور لذنوبهم . قال مقاتل : المعنى : وربكم إن شكرتم فيما رزقكم ربّ غفور

للذنوب . وقيل : إنما جمع لهم بين طيب البلدة والمغفرة؛ للإشارة إلى أن الرزق قد يكون فيه حرام . وقرأ ورش بنصب : « بلدة » ، « وربّ » على المدح ، أو على تقدير : اسكنوا بلدة واشكروا ربا .

ثم ذكر سبحانه ما كان منهم بعد هذه النعمة التى أنعم بها عليهم فقال: ﴿ **فأعرضوا** ﴾ عن الشكر وكفروا باللّه وكذبوا أنبياءهم . قال السدّى : بعث اللّه إلى أهل سبأ ثلاثة عشر نبيا فكذبوهم ، وكذا قال وهب . ثم لما وقع منهم الإعراض عن شكر النعمة أرسل اللّه عليهم نقمة سلب بها ما أنعم به عليهم فقال : ﴿ **فأرسلنا عليهم سيل العرم** ﴾ وذلك أن الماء كان يأتى أرض سبأ من أودية اليمن ، فردموا ردما بين جبلين وحبسوا الماء ، وجعلوا فى ذلك الردم ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض ، وكانوا يسقون من الباب الأعلى ثم من الباب الثانى ثم من الثالث فأخصبوا وكثرت أموالهم، فلما كذبوا رسلهم بعث اللّه جرذا ، ففتقت ذلك الردم حتى انتقض فدخل الماء جنتهم فغرقها ودفن السيل بيوتهم ، فهذا هو سيل العرم ، وهو جمع عرمة : وهى السكر التى تحبس الماء ، وكذا قال قتادة وغيره . وقال السدّى : العرم: اسم للسدّ . والمعنى : أرسلنا عليهم سيل السدّ العرم . وقال عطاء : العرم : اسم الوادى . وقال الزجاج : العرم: اسم الجرذ الذى نقب السد عليهم. وهو الذى يقال له الخلد ، فنسب السيل إليه لكونه سبب جريانه . قال ابن الأعرابى : العرم: من أسماء الفأر . وقال مجاهد وابن أبى نجيح : العرم ماء أحمر أرسله اللّه فى السدّ فشقه وهدمه . وقيل : إن العرم : اسم المطر الشديد ، وقيل : اسم للسيل الشديد. والعرامة فى الأصل :الشدّة والشراسة والصعوبة، يقال : عرم فلان : إذا تشدّد وتصعب . وروى عن ابن الأعرابى أنه قال : العرم : السيل الذى لا يطاق . وقال المبرّد : العرم : كل شىء حاجز بين شيئين .

﴿ **وبدّلناهم بجنتيهم جنتين** ﴾ أى أهلكنا جنتيهم اللتين كانتا مشتملتين على تلك الفواكه الطيبة والأنواع الحسنة،وأعطيناهم بدلهما جنتين لا خير فيهما ولا فائدة لهم فيما هو نابت فيهما، ولهذا قال: ﴿ **ذواتى أكل خمط** ﴾ قرأ الجمهور بتنوين : ﴿ **أكل** ﴾ وعدم إضافته إلى ﴿ **خمط**﴾ وقرأ أبو عمرو بالإضافة . قال الخليل : الخمط : الأراك ، وكذا قال كثير من المفسرين . وقال أبو عبيدة: الخمط: كل شجرة مرّة ذات شوك. وقال الزجاج: كل نبت فيه مرارة لا يمكن أكله . وقال المبرّد : كل شىء تغير إلى ما لا يشتهى يقال له خمط ، ومنه اللبن إذا تغير ، وقراءة الجمهور أولى من قراءة أبى عمرو. والخمط نعت لأكل أو بدل منه؛ لأن الأكل هو الخمط بعينه. وقال الأخفش : الإضافة أحسن فى كلام العرب : مثل ثوب خزّ ودار آجرّ ، والأولى تفسير الخمط بما ذكره الخليل ومن معه . قال الجوهرى : الخمط: ضرب من الأراك له حمل يؤكل ، وتسمية البدل جنتين للمشاكلة أو التهكم بهم ، والأثل: هو الشجر المعروف الشبيه بالطرفاء كذا قال الفراء وغيره قال: إلا أنه أعظم من الطرفاء طولا ، الواحدة أثلة ، والجمع أثلات . وقال الحسن : الأثل : الخشب . وقال أبو عبيدة: هو شجر النطار ، والأوّل أولى ، ولا ثمر للأثل .

والسدر : شجر معروف . قال الفراء : هو السمر . قال الأزهرى : السدر من الشجر سدران : برىّ لا ينتفع به ولا يصلح للغسول ، وله ثمر عفص لا يؤكل ، وهو الذى يسمى الضال . والثانى: سدر ينبت على الماء وثمره النبق ، وورقه غسول يشبه شجر العناب . قيل : ووصف السدر بالقلة ؛ لأن منه نوعا يطيب أكله ، وهو النوع الثانى الذى ذكره الأزهرى . قال قتادة : بينما شجرهم من خير شجر إذ صيره اللّه من شرّ الشجر بأعمالهم ، فأهلك أشجارهم المثمرة وأنبت بدلها الأراك والطرفاء والسدر . ويحتمل أن يرجع قوله : ﴿ **قليل** ﴾ إلى جميع ما ذكر من الخمط والأثل والسدر .

والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما تقدّم من التبديل ، أو إلى مصدر ﴿ **جزيناهم** ﴾ والباء فى: ﴿ **بما كفروا** ﴾ للسببية ، أى ذلك التبديل ، أو ذلك الجزاء بسبب كفرهم للنعمة بإعراضهم عن شكرها ﴿ **وهل نجازى إلا الكفور** ﴾ أى وهل نجازى هذا الجزاء بسلب النعمة ونزول النقمة إلا الشديد الكفر المتبالغ فيه . قرأ الجمهور : «يجازى » بضم التحتية وفتح الزاى على البناء للمفعول . وقرأ حمزة والكسائى ويعقوب وحفص بالنون وكسر الزاى على البناء للفاعل وهو اللّه سبحانه ، والكفور على القراءة الأولى مرفوع ، وعلى القراءة الثانية منصوب ، واختار القراءة الثانية أبو عبيد وأبو حاتم قالا: لأن قبله ﴿ **جزيناهم** ﴾ وظاهر الآية: أنه لا يجازى إلا الكفور مع كون أهل المعاصى يجازون . وقد قال قوم : إن معنى الآية : أنه لا يجازى هذا الجزاء ، وهو الاصطلام [(١)] والإهلاك إلا من كفر . وقال مجاهد : إن المؤمن يكفر عنه سيئاته ، والكافر يجازى بكل عمل عمله . وقال طاووس : هو المناقشة فى الحساب، وأما المؤمن فلا يناقش . وقال الحسن : إن المعنى : أن يجازى الكافر مثلا بمثل ورجح هذا الجواب النحاس .

﴿ **وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها** ﴾ هذا معطوف على قوله: ﴿ **لقد كان لسبأ** ﴾ أى وكان من قصتهم: أنا جعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها بالماء والشجر ، وهى قرى الشام ﴿ **قرى ظاهرة** ﴾ أى متواصلة ، وكان متجرهم من أرضهم التى هى مأرب إلى الشام ، وكانوا يبيتون بقرية ويقيلون بأخرى حتى يرجعوا ، وكانوا لا يحتاجون إلى زاد يحملونه من أرضهم إلى الشام ، فهذا من جملة الحكاية لما أنعم اللّه به عليهم . قال الحسن : إن هذه القرى هى بين اليمن والشام ، قيل : إنها كانت أربعة آلاف وسبعمائة قرية . وقيل : هى بين المدينة والشام . وقال المبرّد : القرى الظاهرة هى المعروفة وإنما قيل لها : ظاهرة لظهورها ، إذا خرجت من هذه ظهرت لك الأخرى فكانت قرى ظاهرة ، أى معروفة ، يقال : هذا أمر ظاهر ، أى معروف ﴿ **وقدّرنا فيها السير** ﴾ أى جعلنا السير من القرية إلى القرية مقدارا معينا واحدا ، وذلك نصف يوم كما قال المفسرون . قال الفرّاء : أى جعلنا بين كل قريتين نصف يوم حتى يكون المقيل فى قرية ، والمبيت فى أخرى إلى أن يصل إلى الشام ، وإنما يبالغ الإنسان فى السير لعدم الزاد والماء ولخوف الطريق ، فإذا وجد الزاد والأمن لم يحمل نفسه المشقة ، بل ينزل أينما أراد .

---

(١) الاصطلام : الاستئصال والإبادة . لسان العرب ١٢/ ٣٤٠ .

والحاصل أن الله سبحانه عدّد عليهم النعم ، ثم ذكر ما نزل بهم من النقم ، ثم عاد لتعديد بقية ما أنعم به عليهم مما هو خارج عن بلدهم من اتصال القرى بينهم وبين ما يريدون السفر إليه ، ثم ذكر بعد ذلك تبديله بالمفاوز والبرارى كما سيأتى وقوله: ﴿**سيروا فيها**﴾ هو على تقدير القول، أى وقلنا لهم: سيروا فى تلك القرى المتصلة، فهو أمر تمكين، أى ومكناهم من السير فيها متى شاؤوا ﴿ **ليالى وأياما آمنين** ﴾ مما يخافونه ، وانتصاب ﴿ **ليالى** ﴾ و ﴿ **أياما** ﴾ على الظرفية . وانتصاب ﴿ **آمنين** ﴾ على الحال . قال قتادة: كانوا يسيرون غير خائفين ولا جياع ولا ظمأ ، كانوا يسيرون مسيرة أربعة أشهر فى أمان لا يحرّك بعضهم بعضا ولو لقى الرجل قاتل أبيه لم يحرّكه .

ثم ذكر سبحانه أنهم لم يشكروا النعمة ، بل طلبوا التعب والكد : ﴿ **فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا** ﴾ وكان هذا القول منهم بطرا وطغيانا لما سئموا النعمة ولم يصبروا على العافية ، فتمنوا طول الأسفار والتباعد بين الديار ، وسألوا الله تعالى أن يجعل بينهم وبين الشام مكان تلك القرى المتواصلة الكثيرة الماء والشجر والأمن والمفاوز والقفار والبرارى المتباعدة الأقطار ، فأجابهم الله إلى ذلك وخرّب تلك القرى المتواصلة وذهب بما فيها من الخير والماء والشجر ، فكانت دعوتهم هذه كدعوة بنى إسرائيل حيث قالوا : ﴿ فادع [1] لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها ﴾ الآية [البقرة: ٦١] مكان المنّ والسلوى ، وكقول النضر بن الحارث : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ﴾ الآية [الأنفال : ٣٢] . قرأ الجمهور : ﴿ ربنا ﴾ بالنصب على أنه منادى مضاف ، وقرؤوا أيضا : ﴿ **باعد** ﴾، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن محيصن وهشام عن ابن عامر: « بعد » بتشديد العين ، وقرأ ابن السميقع بضم العين فعلا ماضيا، فيكون معنى هذه القراءة : الشكوى من بعد الأسفار ، وقرأ أبو صالح ومحمد بن الحنفية وأبو العالية ونصر بن عاصم ويعقوب : « ربنا » بالرفع ،« باعد » بفتح العين على أنه فعل ماض على الابتداء والخبر . والمعنى : لقد باعد ربنا بين أسفارنا ، ورويت هذه القراءة عن ابن عباس ، واختارها أبو حاتم ، قال : لأنهم ما طلبوا التبعيد إنما طلبوا أقرب من ذلك القرب الذى كان بينهم وبين الشام بالقرى المتواصلة بطرا وأشرا وكفرا للنعمة . وقرأ يحيى ابن يعمر وعيسى بن عمر : « ربنا » بالرفع ، « بعد » بفتح العين مشدّدة ، فيكون معنى هذه القراءة : الشكوى بأن ربهم بعد بين أسفارهم مع كونها قريبة متصلة بالقرى والشجر والماء ، فيكون هذا من جملة بطرهم ، وقرأ أخو الحسن البصرى كقراءة ابن السميقع السابقة مع رفع: «بين » على أنه الفاعل ،كما قيل فى قوله : ﴿ لقد تقطع بينكم ﴾ [الأنعام : ٩٤] .وروى الفرّاء والزجاج قراءة مثل هذه القراءة لكن مع نصب: « بين » على أنه ظرف ، والتقدير : بعد سيرنا بين أسفارنا . قال النحاس : وهذه القراءات إذا اختلفت معانيها لم يجز أن يقال : إحداها أجود من الأخرى ، كما لا يقال ذلك فى أخبار الآحاد إذا اختلفت معانيها ، ولكن أخبر عنهم أنهم دعوا ربهم أن يبعد بين أسفارهم ، فلما فعل ذلك بهم شكوا وتضرروّا ، ولهذا قال

(١) فى المخطوطة : « ادع » بدون فاء .

سبحانه : ﴿ **وظلموا أنفسهم** ﴾ حيث كفروا بالله وبطروا نعمته وتعرّضوا لنقمته ﴿ **فجعلناهم أحاديث** ﴾ يتحدّث الناس بأخبارهم . والمعنى : جعلناهم ذوى أحاديث يتحدّث به من بعدهم تعجبا من فعلهم واعتبارا بحالهم وعاقبتهم ﴿ **ومزّقناهم كل ممزّق** ﴾ أى فرّقناهم فى كل وجه من البلاد كل التفريق ، وهذه الجملة مبينة لجعلهم أحاديث . وذلك أن الله سبحانه لما أغرق مكانهم وأذهب جنتهم، تفرّقوا فى البلاد فصارت العرب تضرب بهم الأمثال، فتقول : تفرّقوا أيدى سبا . قال الشعبى : فلحقت الأنصار بيثرب ، وغسان بالشام ، والأزد بعمان ، وخزاعة بتهامة ﴿ **إنّ فى ذلك لآيات** ﴾ أى فيما ذكر من قصتهم وما فعل الله بهم لآيات بينات ، ودلالات واضحات ﴿ **لكلّ صبار شكور** ﴾ أى لكلّ من هو كثير الصبر والشكر ، وخص الصبار والشكور؛ لأنهما المنتفعان بالمواعظ والآيات .

﴿ **ولقد صدّق عليهم إبليس ظنه** ﴾ قرأ الجمهور: « صدق » بالتخفيف ورفع: ﴿ **إبليس** ﴾ ونصب ﴿ **ظنه** ﴾ . قال الزجاج : وهو على المصدر ، أى صدق عليهم ظنا ظنه ، أو صدق فى ظنه ، أو على الظرف ، والمعنى : أنه ظنّ بهم أنه إذا أغواهم اتبعوه فوجدهم كذلك ، ويجوز أن يكون منتصبا على المفعولية ، أو بإسقاط الخافض . وقرأ حمزة والكسائى ويحيى بن وثاب والأعمش وعاصم: ﴿ **صدَّق** ﴾ بالتشديد، و﴿ **ظنه** ﴾ بالنصب على أنه مفعول به. قال أبو علىّ الفارسى : أى صدّق الظنّ الذى ظنه . قال مجاهد : ظنّ ظنا فصدّق ظنه ، فكان كما ظنّ ، وقرأ أبو جعفر وأبو الجهجاء والزّهرى وزيد بن علىّ : «صدق » بالتخفيف و « إبليس » بالنصب و « ظنه » بالرفع ، قال أبو حاتم : لا وجه لهذه القراءة عندى، وقد أجاز هذه القراءة وذكرها الزجاج ، وجعل الظنّ فاعل صدّق وإبليس مفعوله . والمعنى : أن إبليس سوّل له ظنه شيئا فيهم فصدّق ظنه، فكأنه قال : ولقد صدق عليهم ظنّ إبليس . وروى عن أبى عمرو أنه قرأ برفعهما مع تخفيف صدق على أن يكون ظنه بدل اشتمال من إبليس . قيل : وهذه الآية خاصة بأهل سبأ. والمعنى: أنهم غيروا وبدّلوا بعد أن كانوا قد آمنوا بما جاءت به رسلهم . وقيل : هى عامة، أى صدّق إبليس ظنه على الناس كلهم إلا من أطاع الله ، قاله مجاهد والحسن. قال الكلبى: إنه ظنّ أنه إن أغواهم أجابوه، وإن أضلهم أطاعوه فصدّق ظنه ﴿ **فاتبعوه** ﴾ قال الحسن : ما ضربهم بسوط ولا بعصى ، وإنما ظنّ ظنا فكان كما ظن بوسوسته ، وانتصاب ﴿ **إلا فريقا من المؤمنين** ﴾ على الاستثناء ، وفيه وجهان : أحدهما : أن يراد به بعض المؤمنين ؛ لأن كثيرا من المؤمنين يذنب وينقاد لإبليس فى بعض المعاصى ، ولم يسلم منه إلا فريق ، وهم الذين قال فيهم : ﴿ إنّ عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾ [الحجر : ٤٢] . وقيل : المراد بـ ﴿ **فريقا من المؤمنين** ﴾ : المؤمنون كلهم على أن تكون « من » بيانية .

﴿ **وما كان له عليهم من سلطان** ﴾ أى ما كان له تسلط عليهم، أى لم يقهرهم على الكفر، وإنما كان منه الدعاء والوسوسة والتزيين . وقيل : السلطان : القوّة . وقيل : الحجة ، والاستثناء فى قوله : ﴿ **إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شكّ** ﴾ منقطع ، والمعنى : لا سلطان

له عليهم، ولكن ابتليناهم بوسوسته لنعلم . وقيل : هو متصل مفرّغ من أعم العام ، أى ما كان له عليهم تسلط بحال من الأحوال ولا لعلة من العلل إلا ليتميز من يؤمن ومن لا يؤمن ؛ لأنه سبحانه قد علم ذلك علما أزليا . وقال الفراء : المعنى : إلا لنعلم ذلك عندكم . وقيل : إلا لتعلموا أنتم. وقيل : ليعلم أولياؤنا والملائكة. وقرأ الزهرى : « إلا ليعلم » على البناء للمفعول، والأولى حمل العلم هنا على التمييز والإظهار كما ذكرنا ﴿ **وربك على كل شيء حفيظ** ﴾ أى محافظ عليه . قال مقاتل : علم كل شيء من الإيمان والشكّ .

وقد أخرج أحمد ، والبخارى [فى تاريخه] (١) والترمذى وحسنه ، والحاكم وصححه ، وغيرهم عن فروة بن مسيك المرادى قال : أتيت النبىّ ﷺ فقلت : يا رسول الله ، ألا أقاتل من أدبر من قومى بمن أقبل منهم ؟ فأذن لى فى قتالهم وأمرنى ، فلما خرجت من عنده أرسل فى أثرى فردّنى فقال : « ادع القوم ، فمن أسلم منهم فاقبل منه ، ومن لم يسلم فلا تعجل حتى أحدث إليك » وأنزل فى سبأ ما أنزل ، فقال رجل : يا رسول الله ، وما سبأ : أرض أم امرأة؟ قال : « ليس بأرض ولا امرأة ، ولكنه رجل ولد عشرة من العرب ، فتيامن منهم ستة وتشاءم منهم أربعة ، فأما الذين تشاءموا : فلخم وجذام وغسان وعاملة ؛ وأما الذين تيامنوا ، فالأزد والأشعريون وحمير وكندة ومذحج وأنمار » فقال رجل : يا رسول الله، وما أنمار ؟ قال : « الذى منهم خثعم وبجيلة » (٢). وأخرج أحمد وعبد بن حميد والطبرانى وابن عدىّ ، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن عباس نحوه بأخصر منه (٣) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **سيل العرم** ﴾ قال : الشديد . وأخرج ابن جرير عنه قال : ﴿ **سيل العرم** ﴾ :واد كان باليمن كان يسيل إلى مكة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **أكل خمط** ﴾ قال : الأراك . وأخرج ابن المنذر عنه أيضا فى قوله : ﴿ **وهل نجازى إلا الكفور** ﴾ قال : تلك المناقشة .

وأخرج إسحاق بن بشر وابن عساكر عنه أيضا فى قوله : ﴿ **وجعلنا بينهم** ﴾ يعنى : بين مساكنهم ﴿ **وبين القرى التى باركنا فيها** ﴾ يعنى الأرض المقدّسة ﴿ **قرى ظاهرة** ﴾ يعنى : عامرة مخصبة ﴿ **وقدّرنا فيها السير** ﴾ يعنى : فيما بين مساكنهم وبين أرض الشام ﴿ **سيروا فيها** ﴾ إذا ظعنوا من منازلهم إلى أرض الشام من المقدّسة . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **ولقد صدّق عليهم إبليس ظنه** ﴾ قال : إبليس : إن آدم خلق من تراب ومن طين ومن حمأ مسنون خلقا ضعيفا ، وإنى خلقت من نار ، والنار تحرق كل شيء لأحتنكنّ ذرّيته إلا قليلا. قال: فصدّق ظنه عليهم ﴿ **فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين** ﴾ قال : هم المؤمنون كله.

---

(١) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة،وهو الصحيح كما أثبتناه من الدر المنثور ٥/ ٢٣١ ومن مراجع التخريج.

(٢) البخارى فى تاريخه ٧ / ١٢٦ (٥٦٨) والترمذى فى التفسير (٣٢٢٢) وقال : « هذا حديث حسن غريب » وأبو داود فى الحروف (٣٩٨٨) .

(٣) أحمد ١ / ٣١٦ وصححه الحاكم ٢ / ٤٢٣ ووافقه الذهبى .

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢) وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣) قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٤) قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦) قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلاَّ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ﴾ .

قوله : ﴿ **قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله** ﴾ هذا أمر للنبيّ ﷺ بأن يقول لكفار قريش أو للكفار على الإطلاق هذا القول، ومفعولا زعمتم محذوفان، أى زعمتموهم آلهة لدلالة السياق عليهما. قال مقاتل يقول: ادعوهم ليكشفوا عنكم الضّر الذى نزل بكم فى سنين الجوع. ثم أجاب سبحانه عنهم فقال: ﴿ **لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض** ﴾ أى ليس لهم قدرة على خير ولا شرّ، ولا على جلب نفع ولا دفع ضرر فى أمر من الأمور ، وذكر السموات والأرض، لقصد التعميم لكونهما ظرفا للموجودات الخارجية ﴿ **وما لهم فيهما من شرك** ﴾ أى ليس للآلهة فى السموات والأرض مشاركة لا بالخلق ولا بالملك ولا بالتصرّف ﴿ **وما له منهم من ظهير** ﴾ أى وما لله سبحانه من تلك الآلهة من معين يعينه على شىء من أمر السموات والأرض ومن فيهما .

﴿ **ولا تنفع الشفاعة عنده** ﴾ أى شفاعة من يشفع عنده من الملائكة وغيرهم ، وقوله : ﴿**إلا لمن أذن له** ﴾ استثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال ، أى لا تنفع الشفاعة فى حال من الأحوال إلا كائنة لمن أذن له أن يشفع من الملائكة والنبيين ونحوهم من أهل العلم والعمل ، ومعلوم أن هؤلاء لا يشفعون إلا لمن يستحق الشفاعة لا للكافرين ، ويجوز أن يكون المعنى : لاتنفع الشفاعة من الشفعاء المتأهلين لها فى حال من الأحوال إلا كائنة لمن أذن له ، أى لأجله وفى شأنه من المستحقين للشفاعة لهم ، لا من عداهم من غير المستحقين لها ، واللام فى: ﴿ **لمن** ﴾ يجوز أن تتعلق بنفس الشفاعة . قال أبو البقاء : كما تقول شفعت له ، ويجوز أن تتعلق بتنفع ، والأولى أنها متعلقة بالمحذوف كما ذكرنا . قيل : والمراد بقوله : ﴿ **لا تنفع الشفاعة** ﴾ : أنها لا توجد أصلا إلا لمن أذن له ، وإنما علق النفى بنفعها لا بوقوعها تصريحا بنفى ما هو غرضهم من وقوعها. قرأ الجمهور: ﴿ **أذن** ﴾ بفتح الهمزة ، أى أذن له الله سبحانه ؛ لأن اسمه سبحانه مذكور قبل هذا ، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى بضمها على البناء للمفعول ، والآذن هو الله سبحانه ، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ [الأنبياء : ٢٨] ثم أخبر سبحانه عن خوف هؤلاء الشفعاء والمشفوع لهم فقال : ﴿ **حتى إذا فزّع عن قلوبهم** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **فزع** ﴾ مبنيا

للمفعول ، والفاعل هو اللّه ، والقائم مقام الفاعل هو الجارّ والمجرور ، وقرأ ابن عامر: « فزع » مبنيا للفاعل ، وفاعله ضمير يرجع إلى اللّـه سبحانه ، وكلا القراءتين بتشديد الزاى . **وفعل** معناه السلب ، **فالتفزيع** إزالة الفزع . وقرأ الحسن مثل قراءة الجمهور إلا أنه خفف الزاى . **قال** قطرب : معنى ﴿ **فزّع عن قلوبهم** ﴾ أخرج ما فيها من الفزع ، وهو الخوف . وقال **مجاهد** : كشف عن قلوبهم الغطاء يوم القيامة . والمعنى : أن الشفاعة لا تكون من أحد من هؤلاء **المعبودين** من دون اللّه من الملائكة والأنبياء والأصنام ، إلا أن اللّه سبحانه يأذن للملائكة والأنبياء **ونحوهم** فى الشفاعة لمن يستحقها ، وهم على غاية الفزع من اللّه، كما قال تعالى : ﴿ وهم من **خشيته** مشفقون ﴾ [الأنبياء : ٢٨] فإذا أذن لهم فى الشفاعة فزعوا لما يقترن بتلك الحالة من **الأمر** الهائل والخوف الشديد من أن يحدث شىء من أقدار اللّه ، فإذا سرّى عليهم ﴿ **قالوا** ﴾ للملائكة فوقهم ، وهم الذين يوردون عليهم الوحى بالإذن : ﴿ **ماذا قال ربكم** ﴾ أى ماذا أمر به ؟ فيقولون لهم : قال : القول ﴿ **الحقّ** ﴾ وهو قبول شفاعتكم للمستحقين لها **دون غيرهم** ﴿ **وهو العلىّ الكبير** ﴾ فله أن يحكم فى عباده بما يشاء ويفعل ما يريد ، وقيل: **هذا الفزع** يكون للملائكة فى كل أمر يأمر به الربّ . والمعنى : لا تنفع الشفاعة إلا من الملائكة الذين **هم** فزعون اليوم مطيعون للّه، دون الجمادات والشياطين. وقيل : إن الذين يقولون : ﴿ **ماذا قال ربكم** ﴾ ؟ **هم** المشفوع لهم ، والذين أجابوهم هم الشفعاء من الملائكة والأنبياء . وقال الحسن وابن زيد ومجاهد: معنى الآية: حتى إذا كشف الفزع من قلوب المشركين فى الآخرة . قالت لهم الملائكة: ماذا قال ربكم فى الدنيا ؟ قالوا : الحقّ ، فأقرّوا حين لا ينفعهم الإقرار . وقرأ ابن عمر وقتادة : «فرغ » بالراء المهملة والغين المعجمة من الفراغ . والمعنى : فرغ اللّه قلوبهم ، أى كشف عنها الخوف . وقرأ ابن مسعود :« افرنقع » بعد الفاء راء مهملة ثم نون ثم قاف ثم عين مهملة من الافرنقاع وهو التفرّق .

ثم أمر اللّه سبحانه رسوله أن يبكت المشركين ويوبخهم فقال : ﴿ **قل من يرزقكم من السموات والأرض** ﴾ أى من ينعم عليكم بهذه الأرزاق التى تتمتعون بها ، **فإن** آلهتكم لا يملكون مثقال ذرة ، والرّزق من السماء هو المطر ومايتتفع به منها من الشمس والقمر والنجوم ، والرّزق من الأرض هو النبات والمعادن ونحو ذلك ،ولما كان الكفار لا يقدرون على جواب هذا الاستفهام ، ولم تقبل عقولهم نسبة هذا الرّزق إلى آلهتهم ،وربما يتوقفون فى نسبته إلى اللّه مخافة أن تقوم عليهم الحجة ؛ فأمر اللّه رسوله بأن يجيب عن ذلك فقال : ﴿ **قل اللّه** ﴾ أى هو الذى يرزقكم من السموات والأرض . ثم أمره سبحانه أن يخبرهم بأنهم على ضلالة ، لكن على وجه الإنصاف فى الحجة بعد ما سبق تقرير من هو على الهدى ومن هو على الضلالة ، فقال : ﴿ **وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين** ﴾ والمعنى : أن أحد الفريقين من الذين يوحدون اللّه الخالق الرّازق ويخصونه بالعبادة ، والذين يعبدون الجمادات التى لا تقدر على خلق ولارزق ولا نفع ولا ضرّ لعلى أحد الأمرين من الهدى والضلالة ، ومعلوم لكلّ عاقل أن من

عبد الذى يخلق ويرزق وينفع ويضرّ هو الذى على الهدى ، ومن عبد الذى لا يقدر على خلق ولا رزق ولا نفع ولا ضرّ هو الذى على الضلالة ، فقد تضمن هذا الكلام بيان فريق الهدى ، وهم المسلمون ، وفريق الضلالة، وهم المشركون على وجه أبلغ من التصريح . قال المبردّ : ومعنى هذا الكلام معنى قول المتبصر فى الحجة لصاحبه : أحدنا كاذب ، وقد عرف أنه الصادق المصيب ، وصاحبه الكاذب المخطئ . قال : و « أو » عند البصريين على بابها وليست للشكّ ، لكنها على ما تستعمله العرب فى مثل هذا إذا لم يرد المخبر أن يبين وهو عالم بالمعنى . وقال أبو عبيدة والفرّاء : هى بمعنى الواو ، وتقديره : وإنا على هدى وإياكم لفى ضلال مبين ، ومنه قول جرير :

أثعلبة الفوراس أو رباحا ... عدلت بهم طهية والربابا

أى ثعلبة ورباحا ، وكذا قول الآخر :

فلما اشتد بأس الحرب فينا ... تأملنا رباحا أو رزاما

أى ورزاما . وقوله : ﴿ **أو إياكم** ﴾ معطوف على اسم إن وخبرها هوالمذكور ، وحذف خبر الثانى؛ للدلالة عليه، أى إنا لعلى هدى أو فى ضلال مبين ، وإنكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ، ويجوز العكس : وهو كون المذكور خبر الثانى ، وخبر الأوّل محذوفا، كما تقدّم فى قوله : ﴿ واللّه ورسوله أحقّ أن يرضوه ﴾ [التوبة : ٦٢] ثم أردف سبحانه هذا الكلام المنصف بكلام أبلغ منه فى الإنصاف ، وأبعد من الجدل والمشاغبة فقال : ﴿ **قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون** ﴾ أى إنما أدعوكم إلى ما فيه خير لكم ونفع ، ولا ينالنى من كفركم وترككم لإجابتى ضرر ، وهذا كقوله سبحانه : ﴿ لكم دينكم ولى دين ﴾ [الكافرون : ٦] وفى إسناد الجرم إلى المسلمين ونسبة مطلق العمل إلى المخاطبين ، مع كون أعمال المسلمين من البرّ الخالص والطاعة المحضة ، وأعمال الكفار من المعصية البينة والإثم الواضح من الإنصاف ما لا يقادر قدره . والمقصود : المهادنة والمتاركة ، وقد نسخت هذه الآية وأمثالها بآية السيف .

ثم أمره سبحانه بأن يهدّدهم بعذاب الآخرة ، لكن على وجه لا تصريح فيه فقال : ﴿ **قل يجمع بيننا ربنا** ﴾ أى يوم القيامة ﴿ **ثم يفتح بيننا بالحقّ** ﴾ أى يحكم ويقضى بيننا بالحقّ ، فيثيب المطيع ، ويعاقب العاصى ﴿ **وهو الفتاح** ﴾ أى الحاكم بالحقّ القاضى بالصواب ﴿ **العليم** ﴾ بما يتعلق بحكمه وقضائه من المصالح . وهذه أيضا منسوخة بآية السيف . ثم أمره سبحانه أن يورد عليهم حجة أخرى يظهر بها ما هم عليه من الخطأ فقال : ﴿ **قل أرونى الذين ألحقتم به شركاء** ﴾ أى أرونى الذين ألحقتموهم باللّه شركاء له ، وهذه الرؤية هى القلبية ، فيكون ﴿ **شركاء** ﴾ هو المفعول الثالث؛ لأن الفعل تعدّى بالهمزة إلى ثلاثة . الأوّل : الياء فى : ﴿ **أرونى** ﴾ والثانى : الموصول، والثالث: ﴿ **شركاء** ﴾ وعائد الموصول محذوف، أى ألحقتموهم، ويجوز أن تكون هى البصرية، وتعدّى الفعل بالهمزة إلى اثنين: الأوّل: الياء، والثانى: الموصول، ويكون ﴿**شركاء**﴾

منتصبا على الحال . ثم ردّ عليهم ما يدعونه من الشركاء وأبطل ذلك فقال : ﴿ **كلاّ بل هو اللّه العزيز الحكيم** ﴾ أى ارتدعوا عن دعوى المشاركة ، بل المنفرد بالإلهية ، هو اللّه العزيز بالقهر والغلبة، الحكيم بالحكمة الباهرة .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فزّع عن قلوبهم** ﴾ قال : جلى . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عنه قال : لما أوحى الجبار إلى محمد ﷺ دعا الرسول من الملائكة ليبعثه بالوحى ، فسمعت الملائكة صوت الجبار يتكلم بالوحى ، فلما كشف عن قلوبهم سألوا عما قال اللّه، فقالوا الحقّ، وعلموا أن اللّه لا يقول إلا حقا . قال ابن عباس: وصوت الوحى كصوت الحديد على الصفا ، فلما سمعوا خرّوا سجدا ، فلما رفعوا رؤوسهم ﴿**قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحقّ وهو العلىّ الكبير** ﴾. وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا قال : ينزل الأمر إلى السماء الدنيا له وقعة كوقعة السلسلة على الصخرة ، فيفزع له جميع أهل السموات فيقولون : ماذا قال ربكم ؟ ثم يرجعون إلى أنفسهم فيقولون : الحق وهو العلىّ الكبير . وأخرج البخارى وأبو داود والترمذى وابن ماجة وغيرهم من حديث أبى هريرة ، أن النبىّ ﷺ قال : « إذا قضى اللّه الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله ، كأنه سلسلة على صفوان ينفذهم ذلك ، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم ؟ قالوا للذى قال الحقّ وهو العلىّ الكبير»[1] الحديث ، وفى معناه أحاديث . وأخرج سعيد بن منصور وعبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله : ﴿ **وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين** ﴾ قال : نحن على هدى ، وإنكم لفى ضلال مبين . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس قال: ﴿ **الفتاح** ﴾ : القاضى.

﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢٨) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٩) قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لاَّ تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ** ﴾

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٨٠٠) وأبو داود فى الحروف (٣٩٨٩) والترمذى فى التفسير (٣٢٢٣) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » وابن ماجة فى المقدمة (١٩٤) وابن جرير ٢٢ / ٦٢ .

وَجَعَلْنَا الأَغْلاَلَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣) ﴾ .

فى انتصاب ﴿ **كافة** ﴾ وجوه، فقيل : إنه منتصب على الحال من الكاف فى: ﴿ **أرسلناك** ﴾ قال الزجاج : أى وما أرسلناك إلا جامعا للناس بالإنذار والإبلاغ ، والكافة بمعنى الجامع ، والهاء فيه للمبالغة كعلامة . قال أبو حيان : أما قول الزجاج إن ﴿ **كافة** ﴾ بمعنى : جامعا ، والهاء فيه للمبالغة ؛ فإن اللغة لا تساعد عليه؛ لأن كفّ ليس معناه : جمع ، بل معناه: منع . يقال : كف يكف ، أى منع يمنع . والمعنى : إلا مانعا لهم من الكفر ، ومنه الكفّ ؛لأنها تمنع من خروج ما فيه. وقيل: إنه منتصب على المصدرية والهاء للمبالغة كالعاقبة والعافية ، والمراد: أنها صفة مصدر محذوف ، أى إلا رسالة كافة . وقيل: إنه حال من الناس ، والتقدير : وما أرسلناك إلا للناس كافة ، وردّ بأنه لا يتقدّم الحال من المجرور عليه كما هو مقرّر فى علم الإعراب . ويجاب عنه بأنه قد جوّز ذلك أبو علىّ الفارسىّ وابن كيسان وابن برهان ، ومنه قول الشاعر :

إذا المرء أعيته السيادة ناشئا ... فمطلبها كهلا عليه عسير

وقول الآخر :

تسليت طرّا عنكم بعد بينكم ... بذكراكم حتى كأنكم عندى

وقول الآخر :

غافلا تعرض المنية للمر ... ء فيدعى ولات حين إباء

وممن رجح كونها حالا من المجرور بعدها ابن عطية ، وقال : قدمت للاهتمام والتقوّى . وقيل : المعنى إلا ذا كافة ، أى ذا منع ، فحذف المضاف . قيل : واللام فى: ﴿ **للناس** ﴾ بمعنى إلى ، أى وما أرسلناك إلى الناس إلا جامعا لهم بالإنذار والإبلاغ ، أو مانعا لهم من الكفر والمعاصى ، وانتصاب ﴿ **بشيرا ونذيرا** ﴾ على الحال ، أى مبشرا لهم بالجنة ، ومنذرا لهم من النار ﴿ **ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ ما عند الله وما لهم من النفع فى إرسال الرسل .

﴿ **ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين** ﴾ أى متى يكون هذا الوعد الذى تعدونا به ؟ وهو قيام الساعة أخبرونا به إن كنتم صادقين . قالوا هذا على طريقة الاستهزاء برسول الله ﷺ ومن معه من المؤمنين ، فأمر الله رسوله ﷺ أن يجيب عنهم فقال : ﴿ **قل لكم ميعاد يوم** ﴾ أى ميقات يوم وهو يوم البعث . وقيل : وقت حضور الموت . وقيل : أراد يوم بدر؛ لأنه كان يوم عذابهم فى الدنيا ، وعلى كل تقدير فهذه الإضافة للبيان ، ويجوز فى ميعاد أن يكون مصدرا مرادا به الوعد ، وأن يكون اسم زمان . قال أبو عبيدة : الوعد والوعيد والميعاد بمعنى . وقرأ ابن أبى عبلة بتنوين: « ميعاد » ورفعه ، ونصب « يوم » على أن يكون ميعاد مبتدأ ، ويوما ظرف ، والخبر لكم . وقرأ عيسى بن عمر برفع :« ميعاد » منوّنا ، ونصب :«يوم» مضافا إلى الجملة

بعده. وأجاز النحويون: «ميعاد يوم» برفعهما منوّنين على أن ميعاد مبتدأ ويوم بدل منه، وجملة: ﴿ **لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون** ﴾ صفة لميعاد ، أى هذا الميعاد المضروب لكم لا تتأخرون عنه ولا تتقدمون عليه ، بل يكون لا محالة فى الوقت الذى قد قدّر اللّه وقوعه فيه .

ثم ذكر سبحانه طرفا من قبائح الكفار ونوعا من أنواع كفرهم فقال : ﴿ **وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه** ﴾ وهى الكتب القديمة ، كالتوراة والإنجيل والرسل المتقدّمين . وقيل : المراد بالذى بين يديه : الدار الآخرة . ثم أخبر سبحانه عن حالهم فى الآخرة فقال : ﴿ **ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم** ﴾ الخطاب لمحمد ﷺ ، أو لكل من يصلح له ، ومعنى ﴿ **موقوفون عند ربهم** ﴾ : محبوسون فى موقف الحساب ﴿ **يرجع بعضهم إلى بعض القول** ﴾ أى يتراجعون الكلام فيما بينهم باللوم والعتاب بعد أن كانوا فى الدنيا متعارضين متناصرين متحابين . ثم بين سبحانه تلك المراجعة فقال : ﴿ **يقول الذين استضعفوا** ﴾ وهم الأتباع ﴿ **للذين استكبروا** ﴾ وهم الرؤساء المتبوعون ﴿ **لولا أنتم** ﴾ صددتمونا عن الإيمان باللّه والاتباع لرسوله ﴿ **لكنا مؤمنين** ﴾ باللّه مصدقين لرسوله وكتابه .

﴿ **قال الذين استكبروا للذين استضعفوا** ﴾ مجيبين عليهم مستنكرين لما قالوه : ﴿ **أنحن صددناكم عن الهدى** ﴾ أى منعناكم عن الإيمان ﴿ **بعد إذ جاءكم** ﴾ الهدى ، قالوا هذا منكرين لما ادّعوه عليهم من الصدّ لهم ، وجاحدين لما نسبوه إليهم من ذلك ، ثم بينوا لهم أنهم الصادّون لأنفسهم الممتنعون من الهدى بعد إذ جاءهم فقالوا : ﴿ **بل كنتم مجرمين** ﴾ أى مصرّين على الكفر ، كثيرى الإجرام ، عظيمى الآثام . ﴿ **وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا** ﴾ ردّا لما أجابوا به عليهم ، ودفعا لما نسبوه إليهم من صدهم لأنفسهم ﴿ **بل مكر الليل والنهار** ﴾ أصل المكر فى كلام العرب : الخديعة والحيلة ، يقال : مكر به: إذا خدعه واحتال عليه . والمعنى : بل مكركم بنا الليل والنهار ، فحذف المضاف إليه ، وأقيم الظرف مقامه اتساعا . وقال الأخفش: هو على تقدير هذا مكر الليل والنهار . قال النحاس : المعنى واللّه أعلم : بل مكركم فى الليل والنهار ، ودعاؤكم لنا إلى الكفر هو الذى حملنا على هذا . وقال سفيان الثورى : بل عملكم فى الليل والنهار ، ويجوز أن يجعل الليل والنهار ماكرين على الإسناد المجازى كما تقرّر فى علم المعانى . قال المبرّد : كما تقول العرب : نهاره صائم ، وليله قائم ، وأنشد قول جرير :

لقد لمتنا يا أمّ غيلان فى السرى ونمت وما ليل المطىّ بنائم

وأنشد سيبويه :

قيام ليلى وتجلى همى

وقرأ قتادة ويحيى بن يعمر برفع : « مكر » منوّنا ، ونصب:« الليل والنهار» ، والتقدير : بل مكر كائن فى الليل والنهار . وقرأ سعيد بن جبير وأبو رزين بفتح الكاف وتشديد الراء مضافا

بمعنى الكرور ، من كرّ يكرّ : إذا جاء وذهب ، وارتفاع ﴿ **مكر** ﴾ على هذه القراءات على أنه مبتدأ وخبره محذوف ، أى مكر الليل والنهار صدّنا ، أو على أنه فاعل لفعل محذوف، أى صدّنا مكر الليل والنهار ، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف ، كما تقدّم عن الأخفش . وقرأ طلحة ابن راشد كما قرأ سعيد بن جبير ، ولكنه نصب مكر على المصدرية ، أى بل تكرّرن الإغواء مكرًا دائما لا تفترون عنه ، وانتصاب ﴿ **إذ تأمروننا** ﴾ على أنه ظرف للمكر ، أى بل مكركم بنا وقت أمركم لنا ﴿ **أن نكفر بالله ونجعل له أندادا** ﴾ أى أشباها وأمثالا . قال المبرد يقال : ندّ فلان فلان ، أى مثله وأنشد :

أتيمـا تجعـلون إلىّ نـدًا ... ومـا تيم بذى حسب نـديـد

والضمير فى قوله : ﴿ **وأسّروا الندامة لما رأوا العذاب** ﴾ راجع إلى الفريقين ، أى أضمر الفريقان الندامة على مافعلوا من الكفر وأخفوها عن غيرهم ، أو أخفاها كل منهم عن الآخر مخافة الشماتة. وقيل: المراد بأسرّوا هنا : أظهروا لأنه من الأضداد ، يكون تارة بمعنى الإخفاء ، وتارة بمعنى الإظهار ، ومنه قول امرئ القيس :

تجاوزت أحراسا وأهوال معشر ... علىّ حراص لو يسرون مقتلى

وقيل : معنى ﴿ **أسروا الندامة** ﴾ : تبينت الندامة فى أسرّة وجوههم ﴿ **وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا**﴾ الأغلال جمع غل ، يقال : فى رقبته غلّ من حديد ، أى جعلت الأغلال من الحديد فى أعناق هؤلاء فى النار ، والمراد بالذين كفروا : هم المذكورون سابقا . والإظهار لمزيد الذمّ أو للكفار على العموم فيدخل هؤلاء فيهم دخولا أوّليا ﴿ **هل يجزون إلا ما كانوا يعملون** ﴾ أى إلا جزاء ما كانوا يعملونه من الشرك بالله ، أو إلا بما كانوا يعملون على حذف الخافض .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وما أرسلناك إلا كافة للناس**﴾ قال : إلى الناس جميعا. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة قال : أرسل الله محمدا إلى العرب والعجم فأكرمهم على الله أطوعهم له . وأخرج هؤلاء عنه فى قوله : ﴿**وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن** ﴾ قال : هذا قول مشركى العرب كفروا بالقرآن وبالذى بين يديه من الكتب والأنبياء .

﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ**

يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (٣٨) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ (٤١) فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢) ﴾ .

لما قصّ سبحانه حال من تقدّم من الكفار أتبعه بما فيه التسلية لرسوله وبيان أن كفر الأمم السابقة بمن أرسل إليهم من الرسل هو كائن مستمرّ فى الأعصر الأول فقال : ﴿ **وما أرسلنا فى قرية** ﴾ من القرى ﴿ **من نذير** ﴾ ينذرهم ويحذرهم عقاب الله ﴿ **إلا قال مترفوها** ﴾ أى رؤساؤها وأغنياؤها وجبابرتها وقادة الشرّ لرسلهم : ﴿ **إنا بما أرسلتم به كافرون** ﴾ أى بما أرسلتم به من التوحيد والإيمان. وجملة : ﴿ **إلا قال مترفوها** ﴾ فى محل نصب على الحال. ثم ذكر ما افتخروا به من الأموال والأولاد ، وقاسوا حالهم فى الدار الآخرة على حالهم فى هذه الدار على تقدير صحة ما أنذرهم به الرسل فقال : ﴿ **وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين** ﴾ والمعنى : أن الله فضلنا عليكم بالأموال والأولاد فى الدنيا ، وذلك يدلّ على أنه قد رضى ما نحن عليه من الدين وما نحن بمعذبين فى الآخرة بعد إحسانه إلينا فى الدنيا ورضاه عنا .

فأمر الله نبيه ﷺ بأن يجيب عنهم وقال : ﴿ **قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء** ﴾ أن يبسطه له ﴿ **ويقدر** ﴾ أى يضيق على من يشاء أن يضيقه عليه ، فهو سبحانه قد يرزق الكافر والعاصى استدراجا له ، وقد يمتحن المؤمن المطيع بالتقتير توفيرا لأجره ، وليس مجرّد بسط الرزق لمن بسطه له يدل على أنه قد رضى عنه ورضى عمله ، ولا قبضه عمن قبضه عنه يدل على أنه لم يرضه ولا رضى عمله ، فقياس الدار الآخرة على الدار الأولى فى مثل هذا من الغلط البين أو المغالطة الواضحة ﴿ **ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ هذا ، ومن جملة هؤلاء الأكثر من قاس أمر الآخرة على الأولى ، ثم زاد هذا الجواب تأييدا وتأكيدا : ﴿ **وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى** ﴾ أى ليسوا بالخصلة التى تقربكم عندنا قربى . قال مجاهد : الزلفى : القربى ، والزلفة : القربة . قال الأخفش : زلفى اسم مصدر كأنه قال : بالتى تقربكم عندنا تقريبا فتكون زلفى منصوبة المحلّ. قال الفرّاء : إن التى تكون للأموال والأولاد جميعا. وقال الزجاج : إن المعنى : وما أموالكم بالتى تقرّبكم عندنا زلفى ، ولا أولادكم بالشىء يقرّبكم عندنا زلفى ، ثم حذف خبر الأول لدلالة الثانى عليه وأنشد :

نحن بما عندنا وأنت بما عنـ ـدك راض والرأى مختلف

ويجوز فى غير القرآن باللتين وباللاتى وباللواتى وبالذى للأولاد خاصة ، أى لا تزيدكم

الأموال عندنا درجة ورفعة ولا تقربكم تقريبا ﴿ **إلا من آمن وعمل صالحا** ﴾ هو استثناء منقطع فيكون محله النصب ، أى لكن من آمن وعمل صالحا، أو فى محل جرّ بدلا من الضمير فى تقرّبكم ، كذا قال الزجاج . قال النحاس : وهذا القول غلط؛ لأن الكاف والميم للمخاطب فلا يجوز البدل ولو جاز هذا لجاز : رأيتك زيدا . ويجاب عنه : بأن الأخفش والكوفيين يجوزون ذلك ، وقد قال بمثل قول الزجاج الفراء، وأجاز الفراء أن يكون فى موضع رفع بمعنى ما هو إلا من آمن ، والإشارة بقوله : ﴿ **فأولئك** ﴾ إلى من ، والجمع باعتبار معناها وهو مبتدأ وخبره : ﴿**لهم جزاء الضعف** ﴾ أى جزاء الزيادة ، وهى المرادة بقوله : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ [الأنعام: ١٦٠] وهو من إضافة المصدر إلى المفعول، أى جزاء التضعيف للحسنات. وقيل : لهم جزاء الإضعاف لأن الضعف فى معنى الجمع . والباء فى : ﴿ **بما عملوا** ﴾ للسببية ﴿ **وهم فى الغرفات آمنون** ﴾ من جميع ما يكرهون ، والمراد: غرفات الجنة ، قرأ الجمهور: ﴿**جزاء الضعف** ﴾ بالإضافة ، وقرأ الزهرى ويعقوب ونصر بن عاصم وقتادة برفعهما على أن الضعف بدل من جزاء . وروى عن يعقوب أنه قرأ :« جزاء » بالنصب منوّنا ، و: «الضعف» بالرفع على تقدير : فأولئك لهم الضعف جزاء ، أى حال كونه جزاء . وقرأ الجمهور : ﴿ **فى الغرفات** ﴾ بالجمع ، واختار هذه القراءة أبو عبيد ؛ لقوله : ﴿ لنبوّئنهم من الجنة غرفا ﴾ [العنكبوت : ٥٨] .وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة وخلف: « فى الغرفة » بالإفراد؛ لقوله : ﴿أولئك يجزون الغرفة ﴾ [الفرقان : ٧٥]. ولما ذكر سبحانه حال المؤمنين ذكر حال الكافرين فقال : ﴿ **والذين يسعون فى آياتنا** ﴾ بالردّ لها والطعن فيها حال كونهم ﴿ **معاجزين** ﴾ مسابقين لنا زاعمين أنهم يفوتوننا بأنفسهم ، أو معاندين لنا بكفرهم ﴿ **أولئك فى العذاب محضرون** ﴾ أى فى عذاب جهنم تحضرهم الزبانية إليها لا يجدون عنها محيصا . ثم كرّر سبحانه ما تقدّم لقصد التأكيد للحجة والدفع لما قاله الكفرة فقال : ﴿ **قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له** ﴾ أى يوسعه لمن يشاء ويضيقه على من يشاء ، وليس فى ذلك دلالة على سعادة ولا شقاوة ﴿ **وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه** ﴾ أى يخلفه عليكم ، يقال : أخلف له وأخلف عليه: إذا أعطاه عوضه وبدله ، وذلك البدل إما فى الدنيا وإما فى الآخرة ﴿ **وهو خير الرّازقين** ﴾ فإن رزق العباد لبعضهم البعض إنما هو بتيسير اللّه وتقديره ، وليسوا برازقين على الحقيقة بل على طريق المجاز ، كما يقال فى الرجل : إنه يرزق عياله ، وفى الأمير: إنه يرزق جنده، والرازق للأمير والمأمور والكبير والصغير هو الخالق لهم، ومن أخرج من العباد إلى غيره شيئا مما رزقه اللّه فهو إنما تصرّف فى رزق اللّه له ، فاستحق بما خرج منه الثواب عليه المضاعف لامتثاله لأمر اللّه واتفاقه فيما أمره اللّه .

﴿ **ويوم نحشرهم جميعا** ﴾ الظرف منصوب بفعل مقدّر نحو اذكر ، أو هو متصل بقوله : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون موقوفون ﴾ [سبأ : ٣١] أى ولو تراهم أيضا يوم نحشرهم جميعا للحساب العابد والمعبود والمستكبر والمستضعف ﴿**ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون**﴾

تقريعا للمشركين وتوبيخا لمن عبد غير اللّه عزّ وجلّ ، كما فى قوله لعيسى : ﴿ أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون اللّه ﴾ [المائدة : ١١٦] وإنما خصص الملائكة بالذكر مع أن بعض الكفار قد عبد غيرهم من الشياطين والأصنام؛ لأنهم أشرف معبودات المشركين . قال النحاس : والمعنى : أن الملائكة إذا أكذبتهم كان فى ذلك تبكيت للمشركين ، وجملة : ﴿ **قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، أى تنزيها لك أنت الذى نتولاه ونطيعه ونعبده من دونهم ، ما اتخذناهم عابدين ولا توليناهم وليس لنا غيرك وليا ، ثم صرّحوا بما كان المشركون يعبدونه فقالوا : ﴿ **بل كانوا يعبدون الجنّ** ﴾ أى الشياطين وهم إبليس وجنوده ويزعمون أنهم يرونهم وأنهم ملائكة وأنهم بنات اللّه . وقيل : كانوا يدخلون أجواف الأصنام ويخاطبونهم منها ﴿**أكثرهم بهم مؤمنون**﴾ أى أكثر المشركين بالجنّ مؤمنون بهم مصدّقون لهم . قيل : والأكثر فى معنى الكل .

﴿ **فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرّا** ﴾ يعنى : العابدين والمعبودين لا يملك بعضهم وهم المعبودون لبعض، وهم العابدون ﴿ **نفعا** ﴾ أى شفاعة ونجاة ﴿ **ولا ضرّا** ﴾ أى عذابا وهلاكا ، وإنما قيل لهم هذا القول؛ إظهارا لعجزهم وقصورهم وتبكيتا لعابديهم ، وقوله : ﴿**ولا ضرّا** ﴾ هو على حذف مضاف ، أى لا يملكون لهم دفع ضرّ ، وقوله : ﴿**ونقول للذين ظلموا**﴾ عطف على قوله : ﴿ **نقول للملائكة** ﴾ أى للذين ظلموا أنفسهم بعبادة غير اللّه ﴿**ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون** ﴾ فى الدنيا .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى رزين قال : كان رجلان شريكين ، خرج أحدهما إلى الساحل وبقى الآخر ، فلما بعث اللّه النبىّ ﷺ كتب إلى صاحبه يسأله ما فعل ؟ فكتب إليه أنه لم يتبعه أحد من قريش إلا رذالة الناس ومساكينهم ، فترك تجارته ثم أتى صاحبه فقال : دلنى عليه ، وكان يقرأ الكتب ، فأتى النبىّ ﷺ فقال : إلى ما تدعو ؟ قال: « إلى كذا وكذا» ، قال : أشهد أنك رسول الله ، قال : « وما علمك بذلك ؟ » قال : إنه لم يبعث نبىّ إلا اتبعه رذالة الناس ومساكينهم ، فنزلت هذه الآيات : ﴿ **وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها** ﴾ الآيات ، فأرسل إليه النبىّ ﷺ : « إن اللّه قد أنزل تصديق ما قلت » . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد فى قوله : ﴿ **جزاء الضعف** ﴾ قال: تضعيف الحسنة . وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول وابن المنذر وابن أبى حاتم عن محمد بن كعب قال : إذا كان الرجل غنيا تقيا آتاه اللّه أجره مرتين ، وتلا هذه الآية : ﴿ **وما أموالكم ولا أولادكم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فأولئك لهم جزاء الضعف** ﴾ قال : تضعيف الحسنة .

وأخرج سعيد بن منصور، والبخارى فى الأدب المفرد وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه** ﴾ قال : فى غير إسراف ولا تقتير ، وعن مجاهد مثله ، وعن الحسن مثله . وأخرج الدارقطنى ، والبيهقى فى الشعب عن جابر عن النبىّ ﷺ قال : « كلما أنفق العبد من نفقة فعلى اللّه خلفها ضامنا إلا نفقة فى

بنيان[١] أو معصية » [٢] . وأخرج نحوه ابن عدى فى الكامل والبيهقى من وجه آخر عنه مرفوعا بأطول منه . وقد ثبت فى الصحيح من حديث أبى هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال : « قال اللّه عز وجل : أنفق يا بن آدم أنفق عليك» [٣] . وثبت فى الصحيح من حديثه أيضا قال : قال رسول اللّه ﷺ : « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكا تلفا»[٤].وأخرج ابن مردويه عن علىّ بن أبى طالب سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « إن لكل يوم نحسا ، فادفعوا نحس ذلك اليوم بالصدقة » ثم قال : اقرؤوا مواضع الخلف ، فإنى سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « ﴿ **وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه** ﴾ إذا لم تنفقوا كيف يخلف ؟ » . وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « إن المعونة تنزل من السماء على قدر المؤونة » .

﴿ **وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٤٣) وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ (٤٤) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٥) قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦) قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٤٧) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٤٨) قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ (٤٩) قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (٥٠)** ﴾ .

ثم ذكر سبحانه نوعا آخر من أنواع كفرهم ، فقال : ﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا** ﴾ أى الآيات القرآنية حال كونها ﴿**بينات**﴾ واضحات الدلالات ظاهرات المعانى ﴿ **قالوا ما هذا** ﴾ يعنون التالى لها، وهو النبىّ ﷺ ﴿**إلا رجل يريد أن يصدّكم عما كان يعبد آباؤكم**﴾ أى أسلافكم من الأصنام التى كانوا يعبدونها ﴿ **وقالوا** ﴾ ثانيا : ﴿ **ما هذا** ﴾ ؟ يعنون القرآن الكريم ﴿ **إلا إفك مفترى** ﴾ أى كذب مختلق ﴿ **وقال الذين كفروا** ﴾ ثالثا ﴿ **للحقّ لما جاءهم**﴾ أى لأمر الدين الذى جاءهم

---

(١) فى المطبوعة : « بيان » والصحيح ما أثبتناه من مراجع التخريج ومن المخطوطة .

(٢) الدارقطنى٣/ ٨ البيهقى فى الشعب (١٠٧١٣) .

(٣) أحمد ٢ / ٢٤٢ والبخارى فى التفسير (٤٦٨٤) ومسلم فى الزكاة (٩٩٣ / ٣٧) .

(٤) البخارى فى الزكاة (١٤٤٢) ومسلم فى الزكاة (١٠١٠ / ٥٧) والنسائى فى الكبرى فى عشرة النساء (٩١٧٨) .

به رسول الله ﷺ ﴿ **إن هذا إلا سحر مبين** ﴾ وهذا الإنكار منهم خاص بالتوحيد ، وأما إنكار القرآن والمعجزة فكان متفقا عليه بين أهل الكتاب والمشركين، وقيل : أريد بالأوّل : وهو قولهم: ﴿ **إلا إفك مفترى** ﴾ معناه ، وبالثانى : وهو قولهم : ﴿ **إن هذا إلا سحر مبين** ﴾ : نظمه المعجز . وقيل : إن طائفة منهم قالوا : إنه إفك ، وطائفة قالوا : إنه سحر . وقيل : إنهم جميعا قالوا تارة :إنك إفك ، وتارة :إنه سحر ، والأوّل أولى .

﴿ **وما آتيناهم من كتب يدرسونها** ﴾ أى ما أنزلنا على العرب كتبا سماوية يدرسون فيها ﴿**وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير** ﴾ يدعوهم إلى الحقّ وينذرهم بالعذاب ، فليس لتكذيبهم بالقرآن وبالرسول وجه ، ولا شبهة يتشبثون بها. قال قتادة : ما أنزل الله على العرب كتابا قبل القرآن ، ولا بعث إليهم نبيا قبل محمد ﷺ . قال الفرّاء : أى من أين كذبوك ولم يأتهم كتاب ولا نذير بهذا الذى فعلوه ؟ ثم خوّفهم سبحانه وأخبر عن عاقبتهم وعاقبة من كان قبلهم فقال: ﴿ **وكذّب الذين من قبلهم** ﴾ من القرون الخالية ﴿ **وما بلغوا معشار ما آتيناهم**﴾ أى ما بلغ أهل مكة من مشركى قريش وغيرهم من العرب عشر ما آتينا من قبلهم ، من القوّة وكثرة المال وطول العمر فأهلكهم الله ، كعاد وثمود وأمثالهم . والمعشار هو العشر . قال الجوهرى : معشار الشيء: عشره. وقيل: المعشار: عشر العشر، والأوّل أولى. وقيل: إن المعنى : ما بلغ من قبلهم معشار ما آتينا هؤلاء من البينات والهدى . وقيل : ما بلغ من قبلهم معشار شكر ما أعطيناهم. وقيل : ما أعطى الله من قبلهم معشار ما أعطاهم من العلم والبيان والحجة والبرهان ، والأوّل أولى . وقيل : المعشار : عشر العشير ، والعشير عشر العشر ، فيكون جزءًا من ألف جزء . قال الماوردى : وهو الأظهر ؛ لأن المراد به المبالغة فى التقليل . قلت : مراعاة المبالغة فى التقليل لا يسوغ لأجلها الخروج عن المعنى العربى ، وقوله : ﴿ **فكذبوا رسلى** ﴾ عطف على ﴿ **كذب الذين من قبلهم** ﴾ على طريقة السلف ، كقوله : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا ﴾ الآية [القمر : ٩] . والأولى أن : يكون من عطف الخاص على العام ؛ لأن التكذيب الأول لما حذف منه المتعلق للتكذيب أفاد العموم ، فمعناه : كذبوا الكتب المنزلة والرسل المرسلة والمعجزات الواضحة ، وتكذيب الرسل أخص منه ، وإن كان مستلزمًا له فقد روعيت الدلالة اللفظية لا الدلالة الالتزامية ﴿ **فكيف كان** ﴾ أى فكيف كان إنكارى لهم بالعذاب والعقوبة ؟ فليحذر هؤلاء من مثل ذلك ، قيل : وفى الكلام حذف ، والتقدير : فأهلكناهم فكيف كان نكير ؟ والنكير اسم بمعنى الإنكار .

ثم أمر سبحانه رسوله أن يقيم عليهم حجة ينقطعون عندها فقال : ﴿ **قل إنما أعظكم بواحدة**﴾ أى أحذركم وأنذركم سوء عاقبة ما أنتم فيه ، وأوصيكم بخصلة واحدة، وهى: ﴿ **أن تقوموا لله مثنى وفرادى** ﴾ هذا تفسير للخصلة الواحدة ، أو بدل منها ، أى هى قيامكم وتشميركم فى طلب الحقّ بالفكرة الصادقة متفرقين اثنين اثنين ، وواحدًا واحدا ؛ لأن الاجتماع يشوّش الفكر ، وليس المراد : القيام على الرجلين ، بل المراد : القيام بطلب الحقّ وإصداق الفكر

فيه ، كما يقال : قام فلان بأمر كذا ﴿ **ثم تتفكروا** ﴾ فى أمر النبىّ وما جاء به من الكتاب ، فإنكم عند ذلك تعلمون أن ﴿ **ما بصاحبكم من جنة** ﴾ وذلك لأنهم كانوا يقولون : إن محمدًا مجنون ، فقال الله سبحانه : قل لهم اعتبروا أمرى بواحدة ، وهى أن تقوموا لله وفى ذاته مجتمعين ؛ فيقول الرجل لصاحبه : هلّم فلنتصادق ، هل رأينا بهذا الرجل من جنة ؟ أى جنون، أو جرّبنا على كذبا، ثم ينفرد كل واحد عن صاحبه فيتفكر وينظر ، فإن فى ذلك ما يدل على أن محمدًا ﷺ صادق وأنه رسول من عنده الله، وأنه ليس بكاذب ولا ساحر ولا مجنون، وهو معنى قوله : ﴿ **إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد** ﴾ أى ما هو إلا نذير لكم بين يدى الساعة . وقيل : إن جملة : ﴿ **ما بصاحبكم من جنة** ﴾ مستأنفة من جهة الله سبحانه مسوقة للتنبيه على طريقة النظر والتأمل بأن هذا الأمر العظيم والدعوى الكبيرة لا يعرّض نفسه له إلا مجنون لا يبالى بما يقال فيه وما ينسب إليه من الكذب ، وقد علموا أنه أرجح الناس عقلاً ، فوجب أن يصدّقوه فى دعواه ، لا سيما مع انضمام المعجزة الواضحة وإجماعهم على أنه لم يكن ممن يفترى الكذب ، ولا قد جرّبوا عليه كذبا مدّة عمره وعمرهم. وقيل : يجوز أن تكون « ما » فى : ﴿ **ما بصاحبكم** ﴾ استفهامية ، أى ثم تتفكروا أىّ شىء به من آثار الجنون . وقيل : المراد بقوله : ﴿ **إنما أعظكم بواحدة** ﴾ هى « لا إله إلا الله » كذا قال مجاهد والسدى . وقيل : القرآن ؛ لأنه يجمع المواعظ كلها ، والأولى ما ذكرناه أوّلا . قال الزجاج : إن « أن » فى قوله: ﴿ **أن تقوموا** ﴾ فى موضع النصب بمعنى : لأن تقوموا. وقال السدّى: معنى ﴿**مثنى وفرادى**﴾: منفردًا برأيه ومشاورًا لغيره. وقال القتيبى : مناظرًا مع عشيرته ومفكرًا فى نفسه . وقيل : المثنى: عمل النهار ، والفرادى : عمل الليل ، قاله الماوردى . وما أبرد هذا القول وأقلّ جدواه . واختار أبو حاتم وابن الأنبارى الوقف على قوله : ﴿ **ثم تتفكروا** ﴾ وعلى هذا تكون جملة : ﴿**ما بصاحبكم من جنة** ﴾ مستأنفة كما قدّمنا ، وقيل : ليس بوقف ؛ لأن المعنى : ثم تتفكروا هل جربتم عليه كذبًا ، أو أرأيتم منه جنة ، أو فى أحواله من فساد ؟

ثم أمر سبحانه أن يخبرهم أنه لم يكن له غرض فى الدنيا ولا رغبة فيها ؛ حتى تنقطع عندهم الشكوك ويرتفع الريب فقال : ﴿ **قل ما سألتكم من أجر فهو لكم** ﴾ أى ما طلبت منكم من جعل تجعلونه لى مقابل الرسالة فهو لكم إن سألتكموه ، والمراد : نفى السؤال بالكلية ، كما يقول القائل : ما أملكه فى هذا فقد وهبته لك ، يريد : أن لا أملك له فيه أصلا ، ومثل هذه الآية قوله : ﴿ قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودّة فى القربى ﴾ [الشورى : ٢٣] ، وقوله : ﴿ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا ﴾ [الفرقان : ٥٧] . ثم بين لهم أن جره عند الله سبحانه فقال : ﴿ **إن أجرى إلا على الله** ﴾ أى ما أجرى إلا على الله لا على غيره ﴿ **وهو على كل شىء شهيد** ﴾ أى مطلع لا يغيب عنه منه شىء . ﴿ **قل إن ربى يقذف بالحقّ** ﴾ القذف الرمى بالسهم والحصى والكلام . قال الكلبى : يرمى على معنى يأتى به ،

وقال مقاتل : يتكلم بالحق وهو القرآن والوحى ، أى يلقيه إلى أنبيائه . وقال قتادة : ﴿ **بالحق** ﴾ أى بالوحى ، والمعنى أنه يبين الحجة ويظهرها للناس على ألسن رسله . وقيل : يرمى الباطل بالحق فيدمغه ﴿ **علام الغيوب** ﴾ قرأ الجمهور برفع : ﴿ **علام** ﴾ على أنه خبر ثان لإنّ ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أو بدل من الضمير فى يقذف ، أو معطوف على محل اسم إن : قال الزجاج : الرفع من وجهين على الموضع ؛ لأن الموضع موضع رفع ، أو على البدل . وقرأ زيد بن على وعيسى بن عمر وابن أبى إسحاق بالنصب نعتًا لاسم إنّ ، أو بدلا منه ، أو على المدح . قال الفراء : والرفع فى مثل هذا أكثر ، كقوله : ﴿ إن ذلك لحق تخاصم أهل النار ﴾ [ص : ٦٤] وقرئ : « الغيوب » بالحركات الثلاث فى الغين ، وهو جمع غيب ، والغيب هو : الأمر الذى غاب وخفى جدًا .

﴿ **قل جاء الحق** ﴾ أى الإسلام والتوحيد . وقال قتادة : القرآن . وقال النحاس : التقدير : صاحب الحقّ ، أى الكتاب الذى فيه البراهين والحجج . وأقول : لا وجه لتقدير المضاف ؛ فإن القرآن قد جاء كما جاء صاحبه . ﴿ **وما يبدئ الباطل وما يعيد** ﴾ أى ذهب الباطل ذهابًا لم يبق منه إقبال ولا إدبار ولا إبداء ولا إعادة . قال قتادة : الباطل : هو الشيطان ، أى ما يخلق لشيطان ابتداء ولا يبعث ، وبه قال مقاتل والكلبى . وقيل : يجوز أن تكون ما استفهامية ، أى أىّ شىء يبديه وأىّ شىء يعيده ؟ والأوّل أولى . ﴿ **قل إن ضللت** ﴾ عن الطريق الحقة الواضحة ﴿ **فإنما أضل على نفسى** ﴾ أى إثم ضلالتى يكون على نفسى ، وذلك أن الكفار قالوا له : تركت دين آبائك فضللت ، فأمره الله أن يقول لهم هذا القول : ﴿ **وإن اهتديت فبما يوحى إلى ربى** ﴾ من الحكمة والموعظة والبيان بالقرآن ﴿ **إن سميع قريب** ﴾ منى ومنكم يعلم الهدى والضلالة . قرأ الجمهور: ﴿ **ضللت** ﴾ بفتح اللام ، وقرأ الحسن ويحيى بن وثاب بكسر اللام ، وهى لغة أهل العالية .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **وما بلغوا معشار ما آتيناهم** ﴾ يقول: من القوّة فى الدنيا. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى فى الآية قال: يقوم الرجل مع الرجل أو وحده فيفكر ما بصاحبه من جنة. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة: ﴿ **ما بصاحبكم من جنة** ﴾ يقول: إنه ليس بمجنون. وأخرج هؤلاء عنه أيضًا فى قوله : ﴿ **ما سألتكم من أجر** ﴾ أى من جعل فهو لكم ، يقول: لم أسألكم على الإسلام جعلا، وفى قوله: ﴿ **قل إن ربى يقذف بالحق** ﴾ قال : بالوحى ، وفى قوله : ﴿ **وما يبدئ الباطل وما يعيد** ﴾ قال : الشيطان لا يبدئ ولا يعيد إذا هلك . وأخرج هؤلاء أيضًا عنه فى قوله : ﴿ **وما يبدى الباطل وما يعيد** ﴾ قال : ما يخلق إبليس شيئًا ولا يبعثه . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عمر بن سعد فى قوله : ﴿ **إن ضللت فإنما أضلّ على نفسى** ﴾ قال : إنما أوخذ بجنايتى .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾ ﴾.

ثم ذكر سبحانه حالا من أحوال الكفار فقال: ﴿**ولو ترى إذ فزعوا**﴾ والخطاب لرسول الله، أو لكل من يصلح له . قيل : المراد فزعهم عند نزول الموت بهم . وقال الحسن : هو فزعهم فى القبور من الصيحة ، وقال قتادة : هو فزعهم إذا خرجوا من قبورهم . وقال السدّى : هو فزعهم يوم بدر حين ضربت أعناقهم بسيوف الملائكة فلم يستطيعوا فرارًا ولا رجوعًا إلى التوبة . وقال ابن مغفل : هو فزعهم إذا عاينوا عقاب الله يوم القيامة . وقال سعيد بن جبير : هو الخسف الذى يخسف بهم فى البيداء ، فيبقى رجل منهم فيخبر الناس بما لقى أصحابه فيفزعون ، وجواب لو محذوف ، أى لرأيت أمرًا هائلاً ، ومعنى ﴿ **فلا فوت** ﴾ : فلا يفوتنى أحد منهم ولا ينجو منهم ناج . قال مجاهد : فلا مهرب ﴿ **وأخذوا من مكان قريب** ﴾ من ظهر الأرض أو من القبور أو من موقف الحساب . وقيل : من حيث كانوا ، فهم من الله قريب لا يبعدون عنه ولا يفوتونه. قيل : ويجوز أن يكون هذا الفزع هو الفزع الذى بمعنى الإجابة ، يقال : فزع الرجل: إذا أجاب الصارخ الذى يستغيث به كفزعهم إلى الحرب يوم بدر .

﴿ **وقالوا آمنا به** ﴾ أى بمحمد . قال قتادة ، أو بالقرآن . وقال مجاهد : بالله عزّ وجلّ . وقال الحسن : بالبعث ﴿ **وأنى لهم التناوش** ﴾ التناوش : التناول ، وهو تفاعل من التناوش الذى هو التناول ، والمعنى : كيف لهم أن يتناولوا الإيمان من بعد ، يعنى فى الآخرة وقد تركوه فى الدنيا ؟ وهو معنى : ﴿ **من مكان بعيد** ﴾ وهو تمثيل لحالهم فى طلب الخلاص بعد ما فات عنهم . قال ابن السكيت : يقال للرجل إذا تناول رجلاً ليأخذ برأسه أو بلحيته : ناشه ينوشه نوشا، وأنشد :

فهى تنوش الحوض نوشا من علا نوشـــا به تقطع أحـــواز الفـلا

أى تناول ماء الحوض من فوق ، ومنه المناوشة فى القتال . وقيل : التناوش : الرجعة ، أى وأنه لهم الرجعة إلى الدنيا ليؤمنوا ، ومنه قول الشاعر :

تمنى أن تئـوب إلـىّ مىّ وليس إلى تناوشها سبيل

وجملة : ﴿ **وقد كفروا به من قبل** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى والحال أن قد كفروا بما آمنوا به الآن من قبل هذا الوقت ، وذلك حال كونهم فى الدنيا . قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى والأعمش : « التناوش » بالهمز ، وقرأ الباقون بالواو ، واستبعد أبو عبيد والنحاس القراءة الأولى ، ولا وجه للاستبعاد ، فقد ثبت ذلك فى لغة العرب وأشعارها ، ومنه قول الشاعر :

قعدت زمانًا عن طلابك للعلا وجئت نئيشًا بعد ما فاتك الخير

أى وجئت أخيرًا . قال الفراء : الهمز وترك الهمز متقارب ﴿ **ويقذفون بالغيب** ﴾ أى يرمون بالظنّ فيقولون : لا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار ﴿ **من مكان بعيد** ﴾ أى من جهة بعيدة ليس فيها مستند لظنهم الباطل . وقيل : المعنى : يقولون فى القرآن أقولاً باطلة : إنه سحر وشعر وأساطير الأوّلين. وقيل: يقولون فى محمد: إنه ساحر شاعر كاهن مجنون. وقرأ أبو حيوة ومجاهد ومحبوب عن أبى عمرو : « يقذفون » مبنيا للمفعول ، أى يرجمون بما يسوؤهم من جزاء أعمالهم من حيث لا يحتسبون ، وفيه تمثيل لحالهم بحال من يرمى شيئًا لا يراه من مكان بعيد لا مجال للوهم فى لحوقه ، والجملة : إما معطوفة على : ﴿ **وقد كفروا به** ﴾ على أنها حكاية للحال الماضية واستحضار لصورتها ، أو مستأنفة لبيان تمثيل حالهم . ﴿ **وحيل بينهم وبين ما يشتهون** ﴾ من النجاة من العذاب ومنعوا من ذلك . وقيل : حيل بينهم وبين ما يشتهون فى الدنيا من أموالهم وأهليهم ، أو حيل بينهم وبين ما يشتهونه من الرجوع إلى الدنيا ﴿ **كما فعل بأشياعهم من قبل** ﴾ أى بأمثالهم ونظرائهم من كفار الأمم الماضية ، والأشياع جمع شيع ، وشيع جمع شيعة ، وجملة : ﴿ **إنهم كانوا فى شك مريب** ﴾ تعليل لما قبلها ، أى فى شك موقع فى الريبة ، أو ذى ريبة من أمر الرسل والبعث والجنة والنار ، أو فى التوحيد وما جاءتهم به الرسل من الدين ، يقال : أراب الرجل : إذا صار ذا ريبة فهو مريب . وقيل : هو من الريب الذى هو الشك ، فهو كما يقال : عجب عجيب وشعر شاعر .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فلا فوت** ﴾ قال : فلا نجاة . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب** ﴾ قال : هو جيش السفيانى . وقيل : من أين أخذوا ؟ قال : من تحت أقدامهم . وقد ثبت فى الصحيح أنه يخسف بجيش فى البيداء من حديث حفصة [١] وعائشة [٢] ، وخارج الصحيح من حديث أم سلمة [٣] وصفية [٤] وأبى هريرة [٥] وابن مسعود ، وليس فى شىء منها أن ذلك سبب نزول هذه الآية ، ولكنه أخرج ابن جرير من حديث حذيفة بن اليمان قصة الخسف هذه مرفوعة ، وقال فى آخرها : فذلك قوله عزّ وجلّ فى سورة سبأ : ﴿ **ولو ترى إذ فزعوا فلا**

---

(١) مسلم فى الفتن (٦/٢٨٨٣) وأخرجه أحمد ١/٢٨٦ والنسائى فى الحج ٥/٢٠٧ وابن ماجة فى الفتن (٤٠٦٣) .

(٢) البخارى فى البيوع (٢١١٨) ومسلم فى الفتن (٨/٢٨٨٤) وأخرجه أحمد ٦/١٠٥ .

(٣) أحمد ٦/٣١٨ وأبو داود فى المهدى (٤٢٨٩) والترمذى فى الفتن (٢١٨٣) وقال : « وهذا حديث حسن صحيح » وابن ماجة فى الفتن (٤٠٦٥) . وقد أخرجه مسلم فى الفتن (٤/٢٨٨٢) .

(٤) أحمد ٦/٣٣٧ والترمذى فى الفتن (٢١٨٤) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » وابن ماجة فى الفتن (٤٠٦٤) .

(٥) النسائى ٥/٢٠٦ .

فوت ﴾ الآية [١] . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم . والحاكم وصححه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وأنى لهم التناوش** ﴾ قال : كيف لهم الردّ ؟ ﴿**من مكان بعيد** ﴾ قال : يسألون الردّ ، وليس بحين رد . وأخرج ابن المنذر عن التيمى قال : أتيت ابن عباس قلت : ما التناوش ؟ قال : تناول الشىء وليس بحين ذاك .

---

(١) ابن جرير ٢٢/ ٧٢ .